Sirte University Journal of Humanities **(SUJH)** مجلة جامعة سرت للعلوم الإنسانية
Source Homepage: http://journal.su.edu.ly/index.php/Humanities/index
https://doi.org/10.37375/sujh.v14i1.2779

شُوبِنْهَاوَرْ مِنْ اَلتَّشَاؤُمِ إِلَى اَلتَّصَوُّفِ اَلْحَيَاةُ.. بَيْنَ اَلْإِرَادَةِ اَلشِّرِّيرَةِ وَفَنِّ اَلْعَيْشِ اَلْحَكِيمِ

عَبْدَ اَللَّهِ عَلِي عِمْرَانْ
abdullah.ali@omu.edu.ly
كلية الآداب، جامعة عمر المختار، ليبيا

تاريخ الوصول: 2024.04.26 تاريخ الموافقة: 2024.05.24

الملخّص

يَهدِفُ البحثُ إلى بيانِ أهمّيّةِ فلسفةِ شوْبنهاوِر التّشاؤُميّةِ بِالنِّسبةِ لِبقيّةِ الفلاسِفةِ الّذين تأثّروا بِها، وَمُحاوَلةِ معرِفةِ مصادِرِ أفكارِه، سواءً كانت حياته الخاصّة أوْ عصره عُمومًا، وَذلك من خلال عرض التّسلسُلِ المنطِقيّ لِنظريّتِهِ في التّشاؤُم، والّتي انطلق فيها مِن المِثاليّة، بِجعلِ الواقِعِ مُجرّد انعِكاسٍ لِلفِكرِ، وَأنّ كُلًّا مِن الفِكرِ والواقِعِ، يَخضِعانِ لِإرادةٍ مُطلقةٍ شِرّيرةٍ، وَهوَ ما يَجعلُ العالم مكانًا لِلبُؤسِ، والحياةِ رِحلةٌ لِلحُزنِ والألَمِ، وَأنّهُ لا سبيل لِلخلاصِ مِن هذِهِ المعاناةِ، أوْ على الأقلّ تخفيفُها، إلّا مِن خِلالِ حالةٍ مِن الزُّهدِ والتّصوُّفِ، وَهيَ الفِكرةُ الّتي وَصل إليْها مِن خِلالِ المزجِ بيْن تعاليمِ دياناتِ الشّرقِ القديمِ – خاصّةً البوذيّةُ– وَالدّيانةِ المسيحيّةِ.

الكلمات المفتاحية:
اَلتَّشَاؤُمِيَّةُ، اَلْعَبَثِيَّةَ، إِرَادَةٌ عَمْيَاء، تَصَوُّفٌ.

Schopenhauer from pessimism to mysticism
Life.. Between evil will and the art of wise living

Abdullah. A. Omran

Abstract

The research claims to demonstrate the importance of Schopenhauer's pessimistic philosophy in relation to the other philosophers who were influenced by , and seek out the origin place of his ideas and philosophy, whether they were his personal life or his era in general. It also presents the logical sequence of his theory of pessimism, in which he started from idealism by making reality a mere reflection of thought. Both his thoughts and reality are subject to an absolute evil will, which makes the world a place of misery and life a journey of sadness and pain. There is no way to escape from this suffering, or at least alleviate it, except through a state of detachment and Sufism, which is the idea that he reached is blending the teachings of ancient Eastern religions - especially Buddhism - and Christianity.

Keywords
Pessimism,
Absurdism,
Blind will,
Mysticism

المقدّمة

لا تُعَدّ ظاهِرة التّشاؤُمِ والاِستِلابِ جديدةً أوْ دخيلةً على الفِكرِ الإنساني، فهيَ قديمةٌ جِداً، وَلها في كلّ حقبةٍ مُنظروها، بدءًا مِن الشّرقِ القديمِ مُرورًا بِاليونانِ، وُصولًا إلى الفلسفةِ المعاصِرة، فهيَ ظاهِرةٌ مُرتبِطةٌ بِشكلٍ دائِمٍ، بِحالاتِ الاِنتِكاسِ والسُّقوط، والتّردّي الاِقتِصاديّ والأخلاقيّ المصاحِبُ دائِمًا لِلأوبئةِ والحُروب، خاصّةً لوْ كانت البيئةُ خاليَةً مِن أيّ مرجِعيّةٍ دينيّةٍ قويّةٍ قادِرةٍ على مِلءِ الفراغِ الرّوحيّ، والحِفاظ على شَيْءٍ مِنْ التَفاؤُلِ وَالأَمَلِ.

وتُعدّ الفلسفة التشاؤمية للفيْلسوف الألْمانيّ (آرْثر شُوبنْهاور) Schopenhauer 1788–1860، هيَ المحاوَلةُ الغربيّةُ الأوْلى لِصياغة نظريّةٍ فلسفيّةٍ مُتماسِكةٍ عن العبثيّةِ والتّشاؤُميّةِ، وَلا ترجِعُ أهمّيّتُهُ إلى كوْنِهِ أحدَ رُوّادِ التّشاؤميّةِ والْعدميّةِ المعاصرة وحسب، بل إلى كونه أوقَد شُعلَة التّشاؤميّة والْعدميّة في العديد من كبار الفلاسفة الذين أتوا بعْدِه أيضاً، إذ كان أُسْتاذًا لَهُم ولو بِطريقةٍ غَيْر مُبَاشرَةٍ، وَيكفِيه فخْرًا أنّه مِن أساتِذةِ التّشاؤميّ والْعدميّ الأكْبر (نِيتْشة).

مِن جِهةٍ أُخرى تمتّعت فلسفتُهُ بِقُدرةٍ تنبُّؤيّةٍ تجعلُها مُختلِفةً عن الفلسفاتِ التّشاؤميّةِ الوَصفيّةِ اللّاحِقةِ، حيْثُ أتاحت لهُ تجرِبتُهُ مع الثّوْرةِ الفرنسيّةِ وَحُروبِ نابليّون أنْ يَتنبّأ بِما سيَحدُثُ بِشكلٍ أكثر سوءًا في أوروبّا أوْ في العالمِ بِشكلٍ عامّ بعد ذلِك بِقُرونٍ.

وَلكِنّ ذلِك لم يَحُل دون طرحِ الأسئِلةِ حوْل فلسفتِهِ التّشاؤميّة، فقد دأب مُؤرّخو الفلسفةِ والمفكّرون على الرّبطِ بيْن حياةِ الفيْلسوفِ وَفلسفتِهِ، وَلِذلِك أُثيرت الأسئِلةُ عن مدَى اتّساقِ فلسفتِهِ التّشاؤميّةِ مع حياةِ الرّفاهيَةِ والبذخِ الّتي كان يُعيشُها، وَعن حياتِهِ العاطِفيّةِ وَمَوْقِفِهِ مِن المرأةِ، في مُحاوَلةٍ لِلتّشكيكِ في أنْ تكون فلسفتهُ جُزءًا مِن حياتِهِ، وَما هيَ إلّا تنظيرٌ فلسفيّ.

وَفي المقابِلِ طُرِحت أسئِلةٌ عن مدى ضرورةِ هذا الاِتّساقُ، مُقارنةً بِأهمّيّةِ أنْ يَكون قد عبّر عن التّشاؤُميّةِ والمأساةِ مِن خِلالِ نسقٍ فلسفيٍّ مُنظّمٍ، وَنظريّةٍ واضِحةٍ مُتماسِكةٍ، إضافةً إلى كوْنِ عدمِ الاِتّساقِ هوَ دليلُ أصالةٍ وَجدّة.

في كُلِّ الأحوالِ استطاع شوْبنُهاوِر بعد عناءٍ طويلٍ أنْ يُصبح صوْتًا لِعصرِهِ، وَيُمهِّدُ الطّريق لِلفلسفةِ التّشاؤُميّة الّتي تطوّرت بعد ذلِك على يَدِ نيْتشة وَسارتر وَكامو وَسُيوران، إذ نُقِلت على أيْديهِم إلى مرحلةٍ أُخرى أكثر تطوُّرًا، وَإنْ حافظت على الخُطوطِ العريضةِ مِثل مأساويّةٍ وَعبثيّة الحياةِ، وَجدليّةِ الوِلادةِ والموْتِ. وَإنْ كان شوْبنهاوَرُ احتفِظ بِبعضِ الأملِ مِن خِلالِ اللُّجوءِ إلى الفلسفاتِ الشّرقيّةِ الّتي أمدته بِالتّصوُّفِ والرّوحانيّةِ، وَكانت بِمثابةِ البلسمِ لِلعبثيّةِ والتّشاؤُميّةِ.

وبكلماتٍ أكثَر دِقَّةٍ يُمْكِن صِياغة اَلعدِيد مِن **الإشْكاليّات والأسْئلة** اَلتِي يُمْكِن طَرحُها مِن خِلَال البحْث فِي فَلسفَة شُوبنْهاور يَأتِي فِي مُقدّمتهَا، هل كَانَت فلْسفَته تعْبيرًا عن حَياتِه ؟ أم أنّه كان يَتَمتَّع بتجرُّدٍ فِكْرِيٍّ، بحَيث جعل فلْسفَته تُعبِّر عن رُوح عَصره ؟ وبالتَّالي يُمْكِن اِعتِبار فلْسفَته بمثابة اِمتِدادٍ لِلْفلْسفات السَّابقة وَتمهِيدٍ لِلْفلْسفات اللّاحقة عليْهَا، وهل يُمكِن قَبْل ذَلِك النَّظر إلى فلْسفَته على أَنَّهَا تُمثِّل نسقًا فَلسفِياً مُتكاملاً ؟ وَمدَى قُدْرته على عَرْض أفْكاره بِدقَّة، والتَّدْليل عليْهَا بحَيث تَحقَّق اَلمراد مِنهَا لِتغْيِير وُجهَة الفكْر اَلغرْبِي.

وَتوزّعَت موْضوعات البحْث وإشْكاليَّاته **على عِدَّة مَباحِثٍ**، فَفِي المبْحث اَلأُول (هل كان شُوبنْهاور مُتشائمًا) تَناولَت حَياة شُوبنْهاور وَمدَى اِتِّساقهَا مع فلْسفَته، لِكوْنه لَم يَعِش حَيَاة اَلبُؤس اَلتِي كان يَنظُر لَهَا، كمَا تَناولَت مدى أَهَميَّة دِراسة حَيَاة الفيْلسوف مدْخلاً لِفَهم فلْسفَته، أَمَّا المبْحث الثَّانِي (رَكائِز التَّشاؤميَّة: العالم تَصوُّر، العالم إرادة) فأعْرض مِن خِلاله تَصوُّر شُوبنْهاور لِمكوِّنات العالم وَكيفية إِدْراكه، وتأْكيده على أنَّ العالم الماورائيَّ هُو اَلذِي يَتَحكَّم فِي العالم المادِّيّ، وأنَّ الحتْميَّة هِي اَلتِي تَتَحكَّم فِي كُلِّ شَيْء.

وَيأتِي بَعْد ذَلِك المبْحث الثَّالث (الحيَاة بَيْن الألم والْمصادفة واللَّا مَعْنى) وَالذِي أُبيِّن فِيه أَفكَار شُوبنْهاور حَوْل عدم معْقوليَّة العالم وَبُؤس الحيَاة، وعدم جدوى الولادة أصلاً، وَفِي المبْحث الرَّابع (خَلْق العالم وغايَته) أَوضَح مَوقِف شُوبنْهاور مِن خَلْق العالم اَلذِي يَرَاه مُجرَّد مُسْتعْمرة وَجدَت لِمعاقبة البشر، وَأمَّا كَيفِية تجَاوُز كُلِّ هَذِه التَّشاؤميَّة والْمأْسويَّة فَيتضِح فِي المبْحث الخامس (فنُّ العيْش اَلحكِيم) حَيْث يرى شُوبنْهاور أنَّ ذَلِك يَتِم مِن خِلَال اَلعُزْلة والابْتعاد عن الآخرين إضافة إلى تَغذِية العقْل والْوصول إلى النُّبوغ، وَفِي المبْحث اَلأخِير (مِن التَّشاؤم إلى الصُّوفيّة) أَتناوَل اَلسبِيل الأهمُّ فِي نظر شُوبنْهاور لِتحْقِيق السَّعادة، ألَا وَهُو الزُّهْد والتَّصوُّف وإدارة الظُّهْر لِلْعالم، حَيْث تَتَحقَّق هَزِيمَة الإرادة العمْياء اَلتِي تَتَحكَّم فِي العالم.

أَوَّلاً: هَلْ كَانَ شُوبِنْهَاوَرْ مُتَشَائِمًا؟

1- عَدَم اِتِّسَاقِ حَيَاتِهِ مَعَ فَلْسَفَتِهِ

عُرِفَ شُوبِنْهَاوَرْ بَيْنَ مُؤَرِّخِي اَلْفَلْسَفَةِ بِأَنَّهُ فَيْلَسُوفُ اَلتَّشَاؤُمِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ اَلْأَغْلَبِيَّةَ لَا تَحُولُ دُونَ طَرْحِ اَلْأَسْئِلَةِ حَوْلَ هَذَا اَلتَّصْنِيفِ لِفَلْسَفَتِهِ، هَذَا إِذَا عَرَفْنَا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ شَكَّكَ لَيْسَ فِي تَشَاؤُمِيَّةِ شُوبِنْهَاوَرْ بَلْ فِي مَدَى أَصَالَتِهَا وَنَجَاحِهَا، هُوَ تِلْمِيذُهُ (نيتشة)، وَذَلِكَ اِسْتِنَادًا إِلَى اَلْمَبْدَأِ اَلْأَخْلَاقِيِّ اَلْأَسَاسِيِّ فِي فَلْسَفَة (شُوبِنْهَاوَرْ)، اَلْقَائِلَ "لَا تُؤْذِي أَحَدًا"، حَيْثُ يَطْرُحُ (نيتشة) سُؤَالاً اِسْتِنْكَارِيًّا عَمّ إِذَا كَانَ شُوبِنْهَاوَرْ مُتَشَائِمًا حَقًّا؟ (نيتشة، 2003، ص 129).

ويُجِيبُ نيتشة بِأَنَّ شوبنهاور كَانَ مِنَ اَلْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ. (نيتشة، 2010، ص 146) رُغْمَ اِعْتِرَافِهِ بِأَنَّ شُوبِنْهَاوَرْ مُرَبِّيهُ وَمُهَذِّبَهُ، (نيتشة، 2016، ص 22) بل وَيصِفهُ بِأنّه شُوبنْهاور اَلعظِيم. (نيتشة، 2001، ص 5) كمَا يَعترِفُ لَه بِمناقب عِدَّةٍ مِن بيْنهَا أَنَّه هُو مِن غَرْس فِيه بَذرَة التَّشاؤم. (نيتشة، 2016، ص 32) وَلكِنّ ذَلِك لَم يمْنعْهُ مِن الإقْرار بِأنّهُ لَم يُفْلِح فِي مَسْعَاه التَّشاؤميّ كمَا يَنبَغِي.

وَهِي الفكْرة ذَاتهَا اَلتِي نَادَى بِهَا (جُوزايَا رُويس)، وَذلِك حِين اِعتبَر أنَّ هُنَاك اَلكثِير مِن الإشاعات اَلتِي تُروِّج حَوْل فَلسفَة شُوبنْهاور، وأكْثرهَا اِنْتشارًا، هِي أنَّه اِنتهَى إلى التَّشاؤميَّة، وَيرَى أنَّ هَذِه الإشاعات تَحوَّل –بِطبيعة اَلحْال– دُون الاقْتراب مِن فلْسفَته، أو النَّظر إِليْهَا بِطرِيقةٍ مُختلفَةٍ، لِأنَّ تشاؤميَّة شُوبنْهاور تَحولَت إلى قَالَبٍ جَاهِزٍ، يَتِم مِن خِلالِهَا تَفسِير مُجمَل فلْسفَته. (رويس، 2003، ص 285).

وَيرَى (رسل) أيْضًا أنَّ فَلسفَة شُوبنْهاور لَم تَكُن مُنسجمَةً مع مُمارساته الحياتيَّة، فَهُو يَتَناوَل أَطيَب الأطْعمة فِي أَفخَم المطاعم، وَكَان بخيلاً وأنانيًّا رَغْم مَا يدَّعيه مِن زُهْد، وكانتْ لَديْه اَلعدِيد مِن العلاقات الغراميَّة الحسّيّة العابرة الخالية مِن أيِّ عَاطِفةٍ. (رسل، 2012، ص 339) وَهُو مَا يَذهَب إِليَه (غَريزِي) أيْضًا، مُعْتبِرًا أنَّ شُوبنْهاور تَغنَّى بِالتَّشاؤم وَلكنَّه لَم يعشْه أو يُعَان مِنْه. (غريزي، 2008، ص 33).

وَفِي السِّيَاق ذَاتِه يَطرَح (بَدوِي) سُؤَالاً جدليًّا فِي بِداية حَديثِه عن فَلسفَة شُوبنْهاور يُشير فِيه إلى تَناقُضٍ حادٍّ بَيْن فَلسفَتِه وبيْن حَياتِه، إذ هل يَحِق لِمنْ عاش حَيَاةً مُريحَةً مُرفَهَةً، كأنْ يَكُون اِبْنًا مُدَللاً لِرَجلٍ ثُريٍّ

أنْ يَتحدَّث عن مَأْسَاة وَأَلَمَ العالم ؟ (بدوي، 1942، ص 4). أمَّا (وِلْسون) فيذْهب إلى ضَرُورَة النَّظر بِشَيءٍ مِن السُّخْرية إلى التَّشاؤم الشُّوبنهاوري، بل ويعْتبره تشاؤمًا (أَدبِيّاً) وَإلَّا كان على شُوبنْهاور الانْتحار كاسْتجابةٍ مَنطقِيةٍ عِنْد التَّأَكُّد مِن فِقْدَان الحيَاة لِلْمعْنى، بدلاً مِن الاسْتمْتاع بِحياةٍ مُرِيحَة. (ولسون، 1978، ص 17).

وَعلَى الرَّغْم مِن أنَّ السُّؤَال عن فَلسفَة شُوبنْهاور، يُرَاد به التَّشْكيك فِي أصالتهَا، إلَّا أنَّ الإجابة عليْه تَصلُح لِأنْ تَكُون اِسْتهْلالاً جيِّدًا لِتناول فلْسفَته، وَذلِك بِطَرح اَلعدِيد مِن الإشْكاليَّات حَوْلها، فهل كان شُوبنْهاور مُتَشائماً فِعْلاً؟ وأيَّ نَوْع مِن التَّشاؤم هُو اَلذِي يتبنَّاه فِي فلْسفَته؟ هل هُو تَشاؤُمٌ سيْكولوجِيٌّ يُعبِّر به عن سُخْطِه وَموقفه مِن العالم؟ وبالتَّالي نَابعٌ مِن حَياتِه الشَّخْصيَّة؟ أم تَشاؤُمٌ مَنهَجِيٌّ؟ يُرَاد بِه فَهْم العالم بِطريقة أَفضَل، وَوصَف الواقع اَلذِي عَاشَه وَشَاهدَه النَّاس فِي تِلْك الحقْبة؟

إنَّ بعض هَذِه الأسْئلة-رَغْم وجاهتهَا- يُمْكِن اَلرَّد عليْهَا بِأسْئِلةٍ أُخرَى، فهل اَلحدِيث عن المرْأة والْحبِّ، حكرٌ على من عَاشُوا تِلْك التَّجارب فقط؟ هل وصف المعاناة وَرَفضهَا، حِكْرٌ على أُولئك الَّذين يُكابدونهَا؟ أم أنَّ الشُّعور بِهَا أَمْرٌ مُمْكِن لِلَّذين لَا يعيشونهَا؟ لِأنَّهم يُشاركون الغيْر فِي مُعاناتهم؟ وهل الفيْلسوف يُعبِّر فِي فلْسفَته عن حَياتِه ومعاناته فقط؟ أمٌ يُفترَض بِه لِكيْ يَكُون فيْلسوفًا أنْ يُعبِّر عن حَيَاة الآخرين ومعاناتهم؟ وَمتَى تَكُون فَلسفَة الفيْلسوف أَكثَر صِدْقًا؟ عِنْدمَا تُعبِّر عن تَجْربَته ومعايشته الخاصَّة؟ أم عِنْدمَا تُعبِّر عِنْدمَا تَكُون أَكثَر شُموليَّة وتعبِّر عن تَجارِب الآخرين اَلتِي لَم يَعِشْهَا؟

بَادِئ ذِي بَدْءٍ أَلَا يُمْكِن أنْ نَأْخُذ عدم اِتِّساق فَلسفَة شُوبنْهاور مع تَجاربه الحياتيَّة على أَنَّه مِيزَةٌ لِفلْسفته وليْس عيْبًا، بل هُو مَصدَر أَصالَة تِلْك الفلْسفة؛ لِكوْنهَا لَا تُعبِّر عن أَفكَار رَجُلٍ مُحبَطٍ، يُحَاوِل أن يَصُوغ رَدَّة فِعْلِه تُجَاه حَياتِه الخاصَّة فِي مَذهَبٍ فَلسَفِيٍّ، بل هِي تُعبِّر عن رُؤيَةٍ عَمِيقَةٍ وَثاقِبةٍ لِجوْهر الحيَاة والْعالم. (Helene, 1973, p 27).

وعليْه فَإنَّ حصْر شُوبنْهاور فِي زَاوِية التَّشاؤم هُو سُوء فَهْمٍ لِفلْسفته، أو ظنًّا بِأنَّ التَّشاؤم المقْترن بِخيْبة الأمل يُعْطِي دائمًا مَلامِح اَلعُمق والْوضوح لِلرُّؤْية الفلْسفيَّة، بيْنمَا يجْعلك التَّفاؤل تَظهَر فِي مَظهَر اَلمغفل، وَفِي الحقيقة لَم يَكُن شُوبنْهاور مُتشائمًا، أو بِمعْنًى أدقّ لَمْ يَكُن تشاؤمه يَصدُر عن مَوقِفٍ نَفسِيٍّ، أو دَلالَةٍ على الاكْتئاب والْوَهن العصَبِيّ، بِقَدر مَا هُو مَوقِفٌ فَلسَفِيٌّ، وتشاؤمٌ مَنهَجِيٌّ مُؤقَّتٌ، أَشبَه بِالشَّكِّ الدِّيكارْتِيّ، لِبيان عَبَثيَّة اَلوُجود وغياب المعْنى، والبحْث عن شُرُوطٍ جَدِيدَةٍ لِلتَّفاؤل خَالية مِن الوهْم. (فيري، 2015، ص 254) إنَّهُ يُحاوِلُ أَنْ يَجْعَلَ تَفَاعُلَنَا مَعَ اَلْعَالَمِ قَائِمٌ عَلَى اَلْحَقَائِقِ، فهو لَا يُنْكِرُ اَلتَّفَاؤُل، وَلَكِنَّهُ يَشترطُ أَنْ يَكُونَ حَقِيقِيًّا، وَمُؤَسَّسًا عَلَى أَسْبَابٍ مَوْضُوعِيَّةٍ.

2- فَلْسَفَتُهُ تُعَبِّرُ عَنْ حَيَاتِهِ

فِي اَلجهة اَلأُخرى وخلافًا لِمَا يطْرحه (رسل) و(بَدوِي)، هُنَاك من يرى أنَّ فَلسفَة شُوبنْهاور قد تَأثرَت بِأحْدَاثٍ تَتَعلَّق بِحياته الخاصَّة، بدءاً مِن العوامل الوراثيَّة والْجِينيَّة، فقد كان والده مُصَاباً بِاكْتئابٍ حادٍّ، وبعْض الأقْوال تُرجِّح مَوتَه مُنْتحِرًا، كمَا أُدخل اِثْنيْن مِن أعْمامه إلى مَصحَّةٍ عَقلِيةٍ، وأصيبتْ جدتُه (أُمُّ والده) بالجْنون بَعْد وَفَاة جَدِّه. (هيوستن، 2012، ص 47) مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُ عَاشَ فِي أُسْرَةٍ تُعَانِي اِضْطِرَابَاتٍ نَفْسِيَّةٍ وَعَقْلِيَّةٍ لِعِدَّةِ أَجْيَالٍ.

أمَّا مِن النَّاحية التَّرْبويَّة فقد كان والده ذَا نَظرَةٍ عَمَليَّةٍ، فأطْلع اِبْنَه على حَقائِق الحيَاة القاسية فِي مَرْحَلةٍ مُبكرَةٍ مِن عُمْرِه، وَكَان لِهَذه المواجهة مع حَقائِق الحيَاة، أثرًا بالغًا فِي بِداية تَأمُّله الفلْسفيَّ. (تسيمر، 2011، 140) وشوبنْهاور نَفسَه كاد يُصَاب بِالجْنون بِسَبب وَفَاة وَالدِه اَلتِي جَاءَت بَعْد أنْ بَدأَت العلاقة تَتَوطَّد بيْنهمَا، وَبدَأ والده بِتفهُّم رَغبَة اِبْنِه فِي عدم العمل فِي التِّجارة والاهْتمام بِالدِّراسة والْفلْسفة. (معوض، 2020، ص 33).

وَعند مُحاولته التَّخَلُّص مِن حُزْنِه، بِسَبب رَفضِه الدَّائم لِطَلب وَالدِه، حَاوَل شُوبنْهاور أن يَكُون وفيًّا لِذكْرى وَالدِه، وأن يُكرَه نَفسَه على تَحقِيق أُمْنيَته، بِأن يُصْبِح تَاجِرا، مِمَّا عَمَّق اِكْتئابه لِأنه يَقُوم بِذَلك مُكْرهًا ومضْطرًّا(Helene, 1973, p 25).

كماَ يُعَدّ مَوقِف شُوبنْهاور مِن المرْأة اِنْعكاسًا لِحياته، وَإنْ كان قد تَراجَع عَنْه جُزْئيا حِين قال: لَم أَكُن أَعتَقِد حِين تَحدثَت عن المرْأة بِوجود فَتَاةٍ مِثْل هَذِه جَدِيرَةً بِالْحبِّ. (بدوي، 1942، ص 25) إلَّا أنَّ موْقفه فِي اَلعُموم يُعَدّ اِنْعكاسًا مُباشِرًا لِعلاقته بِأمِّه، وَهِي اَلتِي تَوترَت بِشَكلٍ كبيرٍ بَعْد مَوْت وَالدِه، حَيْث حاولتْ أنْ تَشُق لِنفْسِهَا طَرِيقهَا اَلْخاص فِي مَجَال الأدب وَالفِكر، وَذلِك بِالتَّواصل مع كَافَّة المفكِّرين والْأدباء مِن خِلَال صالونهَا الثَّقافِيّ، وَهُو الأمْر اَلذِي أَزعَج شُوبنْهاور، واحْتَدم الخلَاف بيْنهمَا إلى حدِّ مُغادرته البيْت. (معوض، 2020، ص 41) أَلا يَعُدّ هذَا الحرْمان سببًا كافيًا إلى التَّشاؤم والشُّعور بِالْمأْساة، فأيُّ حِرْمَان أَكبَر مِن حِرْمَان طِفْلٍ مِن عَطْف أُمِّه؟ لِذَلك لَم يَعرِف مِن الحيَاة سِوى مقْتهَا وكراهيتهَا، وَلَا يفْتنه أو يُغْرِيه بَعْد ذَلِك أيُّ شَيْءٍ مِن

محاسنهَا ومباهجهَا. (عويضة، 1993، ص 63) فَلقَد حُرم وَهُو طِفْلٌ مِن حَنَان اَلأُم ومساندة اَلأَب، لَقد عاش وحيدًا بِلَا أُمٍ ولَا أبٍ ولَا زَوجَةٍ ولَا ولدٍ، وعنْد مَوتِه كان وريثه اَلوحِيد كَلبُه أَتمَّا Atma. (فيري، 2015، ص 260)

عَبَّر فِي فلْسفَته عن هذَا الحرْمان الوجْدانِيّ رَغْم الثَّرَاء حِين أَكَّد على أنَّ الثَّرَاء حَتَّى لَو كان فاحشًا فلن يُسْهِم إِلَّا بِنَزر يسير فِي سعادتنَا؛ لِأَنَّ السَّعادة فِعْل كَينُونة لَا مُفردَات حِيازة. (شوبنهاور، 2018، ص ص 20–24) وَإِنّ الفارق الحقيقيَّ فِي الحيَاة غَيْر مُرْتَبِطٍ بِالْمَال، وليْس فِي مِقدَار مَا يمْلكه النَّاس مِن ثَروَةٍ، بل مِقدَار مَا تَدفَع عَنهُم تِلْك الثَّرْوة مِن شُرُورٍ وآلامٍ. (شوبنهاور، 2018، ص 67)

وَعلَى اَلصعِيد اَلفكْرِي والْمهْنِيّ تَعرَّض شُوبنْهاور لِخيْبَاتٍ عَدِةٍ، فَفِي عام 1813، وخلال إِقامَته فِي برْلين وعنْد وُصوله لِلْفصْل الدِّراسيّ اَلأَخِير مِن دِراسة الدُّكْتوراة أُجبَر على مُغَادرَة المدينة بِسَبب الحرْب مِمَّا أَعَاق حُصوله على الدُّكْتوراة. (معوض، 2020، ص 40) وَحتَّى بَعْد أنْ حصل على الدُّكْتوراة بِشقِّ الأَنْفس وَطُول اِنتِظارٍ لَاحِق تِلْك الرِّسالة سُوء الطَّالع، فعِنْدمَا نشرهَا فِي كِتَابٍ، وأعْتبره مَدْخَلاً أَساسِياً لِفلْسفته لَم يُبع ولم يَلتَفِت لَه أحدٌ. (كوبلستون، 2016، ص 332).

وَفِي عام 1819 – أيْ عِنْدمَا كان يَبلُغ مِن اَلعُمر واحدًا وثلاثين عامًا– نَشْر عَملِه الرَّئيس (العالم إِرادةٌ وتصوُّرٌ)، ولم يُحقِّق الكِتاب حِينهَا نجاحًا يُذكَر، بل وُصِف بِأَنّه وُلِد ميِّتًا، وبالتَّالي فَإِنّ خَيبَة الأمل اَلتِي نَجمَت عن ذَلِك أَدَّت إِلى تَفاقُم حَالَة الاكْتئاب والتَّشاؤم. (Schopenhauer, 2005, p 77) مِن جِهةٍ أُخرَى تَعرَّض لِفَشلٍ أكاديميّ آخر عام 1820 عِنْدمَا كان مَوعِد مُحاضراته فِي نَفْس مَوعِد مُحاضرات (هيغل)، فِي مُحَاولَةٍ مِنْه لِإِثْبَات نَفسِه، فَكَان مصيره الإِخْفاق، مِمَّا دَفعَه إِلى تَرْك إِلقَاء المحاضرات بَعْد فَصْل دِراسيّ وَاحِد. (كوبلستون، 2016، ص 333) أيْ أَنَّه بِشَكلٍ عامّ، لَم يُحقِّق نجاحًا يُذكَر فِي التَّدْريس الجامعيّ. (برهييه، 1985، ص 284).

وقد كان لِلْمنَاخ اَلفكْرِي اَلْعام اَلذِي سَاد إِبَّان حَيَاة شُوبنْهاور، أثرٌ بَالِغٌ على فلْسفَته، وَلذَلِك نَجدُه يُعْلِن صَراحَةً أَنَّه مُتَشائِمٌ، فعَصرَه فَرْض عليْه ذَلِك، ولو أَنَّه عاش فِي عَصْر (لَابنتز) لَكَان مُتفائلا مَثلُه. (شتاينر، 1998، ص 28) وَلَكنَّه عاش فِي عَصْر سَيطَر عليْه اليأْس والتَّسْليم بِالْقضاء والْقَدر، والْإِيمان بِقوَّة الطَّبيعة، نَتِيجَة لِلْكوارث والْحروب النَّابلْيونيَّة فِي أُورُوبا، مِمَّا خلق فُتورًا ومللا وحزْنًا (ديورانت، 1998، ص 443) وَلذَلِك تُعدّ فَلسفَة شُوبنْهاور، اِنْعكاسًا لِلشَّبَاب اَلنّشِيط والسَّوْداويَّ. (نيتشة، 2001، ص 86)

ولَقَدْ شاع فِي عصر شوبنهاور التَّشَاؤُم اَلْعَمِيق، وَبِطَبِيعَةِ اَلْحَالِ لَمْ يَكُنْ شُوبِنْهَاوَرْ مَعْزُولاً عَنْ حَالَةِ اَلتَّشَاؤُمِ اَلْعَامَّةِ اَلَّتِي عَرَفَهَا اَلْأَدَبُ عَلَى يَدِ شُعَرَاءِ أَمْثَالِ (دِي مُوسِيهْ) و(بُوشْكِينْ)، كَمَا عَرَفَهَا مُوسِيقِيُّونَ أَمْثَالُ (بِيتْهُوفِنْ) و(شُومَانْ)، وَالتِي اِرْتَبَطتْ جميعهَا بِالتَّغيُّرات اَلكُبرى اَلتِي عَرَفتهَا الثَّوْرة الفرنْسيَّة، بِدايةً مِن اِنْقلابهَا على نفْسهَا، عِنْدمَا تَحوَّل أَبرَز قَادتِها وَهُو (نابلْيون) إِلى مُنَادٍ بِالرَّجْعيَّة، زِد على ذَلِك عَودَة الملكيَّة فِي فرنْسَا، ومطالبة الإِقْطاعيِّين بِمُمتلكاتهم اَلتِي سَلَبتهَا مِنْهم الثَّوْرة، وَخضُوع كَافَّة المثقَّفين فِي أُورُوبا أَمَام الطُّغَاة، مِمَّا يَعنِي أَنَّ كُلَّ التَّضْحيات اَلتِي مات مِن أَجلِها الأَبْطال ذَهبَت هَبَاءً، ولَم يَبْقَ سِوى المَوْتِ والْفَقْر والْأَرْض اَلبُورُ. (معوض، 2020، ص 14)

فَلقَد خَلقَت الثَّوْرة الفرنْسيَّة مَوْطنًا (فِكْريًّا) يَضُم العديد مِن الأَحْرار المتطلِّعين لِلْحرِّيَّة، وبناءً عليْه تَحقَّق مِن خِلالِهَا تَقارُب وتوحُّد بَيْن الشُّعوب. (دو توكفيل، 2010، ص 74) وَلذَلِك مات بِمَوْتِهَا كُلَّ شَيْءٍ فِي الحيَاة، بل أَصبَحت الحيَاة بِلَا مَعْنى، حَيْث فقد اَلجمِيع الأمل بَعْد أَنْ تَراءَت أمامَهم الجنَّة المَوْعودة والْآمال اَلكُبرى اَلتِي بَشرَت بِهَا الثَّوْرة وَضحَّى لِأَجْلِهَا الأَبْطال، وَفِي حِين لَجَأ بَعْض المسْحوقين والْمقْهورين إِلى الدِّين لِلْبحْث عَمَّا يُعَزيهِم فِي مُصَابِهِم، ذهب آخرون إِلى الضِّدِّ تمامًا، فقد رَفضُوا حَتَّى الدِّين واهْتزَّ إِيمانهم، فهل يُعقَل أن تَكُون هَذِه اَلْفَوضى والْخَراب مِن صُنْع إِلهٍ عَادِلٍ. (معوض، 2020، ص 16)

وَهذَا مَا دفع (لُوكاش) إِلى اِعتِبار أنَّ فَلسفَة شُوبنْهاور، تُعدّ اِنْعكاسًا لِلصِّرَاع والتَّعارض الطَّبَقيّ والْأَيْديولوجيّ اَلذِي عاصره، الصِّرَاع بَيْن القائلين بِالتَّقدُّم اَلثوْرِي على غِرَار الثَّوْرة الفرنْسيَّة، والْقَائلين بِالتَّقدُّم اَلعضْوِي أيْ اَلْعَودة لِنظام مَا قَبْل الثَّوْرة والْعوْدة إِلى الشَّرْعيَّة والْإِقْطاعيَّة، وَلعَل ذَلِك مَا دفع شُوبنْهاور لِلْكفْر بِأَشْكَال التَّقَدُّم كَافَّة، حَيْث يُعْطِي الأَوْلويَّة لِنظام قَوِي حَتَّى ولو كان ملكيًّا، اَلمهِم أنْ يَقِف فِي وَجْه الجماهير المسْتغلَّة. (لوكاش، د.ت، ص 42)

إِنّ تَشاؤُم شُوبنْهاور يُمثِّل الانْعكاس الأَيْديولوجيُّ لِحقْبة الإِعادة؛ حَيْث أَنقَاض الثَّوْرة الفرنْسيَّة والْحقْبة النَّابلْيونيَّة وَحرُوب التَّحْرير، وَكَان العالم بِأسْره فِي اِنقِلاب دَائِم، وَكَان على مَا يَبدُو أَنَّ كُلَّ شَيْء يَعُود إِلى النِّظَام اَلقدِيم، مِمَّا يَعنِي أَنَّ كُلَّ اَلجُهود الرَّامية لِلتَّغْيير أو لِلتَّأْثير على التَّاريخ، كَانَت بِلَا جَدوَى. (لوكاش، د.ت، ص 15)

فكان شُوبنْهاور مُتأثِّرًا بنابلْيون فمنْه اِسْتنْبط فِكْرَة الإرادة، وَبِسبَب هزيمَته وَنفيه تَبنَّى فلْسفَته التَّشاؤميَّة، إضافةً لِتأثُّره بِمَا رآه مِن دَمَارٍ وموْتٍ وَجُوعٍ وفقْرٍ جَرَّاء اَلحُروب، فقد تَساوَى اَلجمِيع سَوَاء المهْزوم أو المنْتصر. (ديورانت، 1998، ص ص 383-385) وَإِنّ رُؤيَته لِمحْنة الفقراء العظيمة فِي أُورُوبا، أَثنَاء الكسَاد الاقْتصاديّ اَلذِي عَقَّب اَلحُروب النَّابلْيونيَّة، جعلتْه مُتشائمًا (كلي، 2010، ص 348).

ويُمْكِن أنْ نُضيف إلى الأسْباب السَّابقة خَيبَة الأمل اَلتِي رافقتْ صُعُود التَّقَدُّم اَلعلْمِي الهائل، فقد أَخفَق العلم فِي تَحقِيق العوْن المرْجوّ مِنْه لِإسْعَاد البشريَّة. (حسين، 2007، ص 221) فقد عَاصَر شُوبنْهاور الحتْميَّة والْآليَّة اَلتِي تَرتبَت على الاكْتشافات اَلتِي حقَّقتْهَا فِيزْيَاء (نيوتن)، حَيْث اِجتمَع فِي تِلْك الحقْبة الخيْبة السِّياسيَّة والْفكْريَّة والْحتْميَّة وفقْدَان اَلحُرية، وَبذَلِك كان شُوبنْهاور مُمْثلاً لِموْقف العجْز والْيَأْس اَلتِي يعيشه المثقَّفون فِي أُورُوبا عُمومًا وأَلْمانْيَا خُصوصًا، حَيْث أَثبَتت الأفْكار عجْزهَا أَمَام البنْدقيَّة.

وَعلَى الرَّغْم مِن كُلّ التأويلات اَلتِي ركزت على حياة شوبنهاور، لكي تستنبط منها فلسفته، إِلَّا أنَّ هُنَاك مِن يَأخُذ على مؤرخي الفلْسفة اِهْتمامهم بِحياة شُوبنْهاور أَكثَر مِن اِهْتمامه بِفلْسفته، كمَا لَو أنَّ مَعرِفة حَياتِه ضَرورِي لِفَهم فلْسفَته، وَحتَّى فِي أَسوَأ الأحْوال وَتبيَّن أنَّ فلْسفَته لَا تَتسِق مع حَياتِه، وعلَيْنَا أنْ نُحدِّد هل فَشِل بِوصْفه إنْسانًا ؟ أم فشل بِوصْفه فيْلسوفًا؟ (مورانو، 2013، ص 11) وَمَا اَلَّذِي جعَلَهُ يَتحَدَّثُ عَلَى هَذَا اَلنَّحْوِ ؟ هَلْ هُوَ اَلْفَيْلَسُوفُ ؟ أَمْ اَلْكَاتِبِ ؟ (سيوران، 2015، ص 106) فهل مَا كَتبَه كان يُعبِّر عن حَياتِه، فَيكُون كاتبًا، أم يُعبِّر عن رُؤيَة موْضوعيَّة لِلْعالم وبالتَّالي يَكُون فيْلسوفًا.

وعلَيْه يَعُود التَّركِيز على دِراسة فلْسفَته أَكثَر أَهَمِيَّة، لَا سِيَّما أنَّ هُنَاك مِن يَعدّه اَلمؤسس الأوَّل لِفلْسَفة (إرادة اَلقُوة الخلَّاقة). (اشبنغلر، 1964، ص 112) كما تَحَوَّلَتْ اَلتَّشَاؤُمِيَّةُ عَلَى يَدِهِ إِلَى مَذْهَبٍ فَلْسَفِيٍّ وَاضِحِ اَلْمَعَالِمِ، حَيْثُ عَدّ أَنَّ هَذَا اَلْعَالَمَ هُوَ أَسْوَأُ اَلْعَوَالِمِ اَلْمُمْكِنَةِ. (Guttmacher, 1903, p 13) فَقدَّم تصوُّرًا لِلْبؤْس والْغرور وَعبثِية الحيَاة، لَا يُوجَد تَصوُّرٌ تَمكَّن مِن التَّفَوُّق علَيْه. (شوبنهاور، 2021، ص 12) وَهُو مَا مَنحَه شُهرَة لَا يَختَلِف علَيْهَا اِثْنَان بَيْن جُمْهُور اَلقُراء، ولَا يفوقه شُهرَةً إِلَّا (كانْط) اَلذِي يُعُد الفيْلسوف الأوَّل لِأوروبَّا. (رويس، 2003، ص 285)

وَكَانَت فلْسفَته تَتَنبَّأ -شأْنَهَا شَأْن فَلسفَة نِيتْشة- بِقدوم مَراحِلِ اِنْحطاطيَّةٍ سيعْرفهَا العالم مُسْتقْبلا، لَقد كَانَت تُحذِّر مِن ظَواهِر لَم تَكُن تَظهَر فِي حِينهَا إِلَّا كخطٍّ صغير، وَالتِي يأْتِي فِي مُقَدمتهَا صُعُود اَلقُوى الرَّجْعيَّة، ضلَّ شُوبنْهاور مَعزُولا وَبلَا صدى حَتَّى أَحدَثت هَزِيمَة ثَورَة 1848 فِي أَلْمانْيَا موْقفًا أَيْديولوجيًّا وسياسيًّا جديدًا، حَيْث اِسْتسْلم المثقَّفون أَمَام طُغَاة أُورُوبا، فأصْبح مَشهُوراً لِدرجة حلَّ محلّ (فِيورْباخ). (لوكاش، د.ت، ص ص 6-9) وحينها أصْغتْ أُورُوبا بِرمَّتِهَا إِلى شُوبنْهاور، بل وأصْبح صوْتًا لِفلْسفتهَا. (ديورانت، 1998، ص 443)

بل هُنَالِك من يرى أنَّ الفلْسفة مُنْذ شُوبنْهاور، شَهدَت تحوُّلا جذْريًّا، بِالتَّحوُّل مِمَّا هُو تجْريديٌّ إِلى مَا هُو وَاقعِي، مِن إِشْكاليَّة المعْرفة إِلى إِشْكاليَّة الحيَاة، حَيْث اِختفَى إِنسَان كانْط اَلمجرد وحلّ محلّه الإنْسان الواقعيّ، وَمِن هُنَا بَرزَت إِشْكاليَّات مِثْل الإرادة والْحياة وَالفِعل. (اشبنغلر، 1964، ص 72)

وأنّ مَا يُضْفِي على فلْسفَته الأهمِيَّة رَغْم مَا فِيهَا مِن تَناقُضٍ وَسطحِيةٍ، هُو كَونُها مَثلَت مَرْحَلةً مُهمَّةً فِي تَطوُّر الأفْكار الفلْسفيَّة، خَاصَّةً تِلْك اَلتِي اِسْتنْبطهَا (نِيتْشة) و(دِيوي) و(جِيمْس) مِن رُؤيَة شُوبنْهاور لِإشْكاليَّةِ الإرادة، وَإِن كَانُوا قد وَصلُوا إِلى نَتائِج مُعَاكسَة تمامًا، وَذلِك لِكوْنِهم أَعلَوا مِن شَأْن العقْل فِي مُقَابِل الإرادة. (رسل، 2012، ص 340)

ثَانِيًا: رَكَائِزُ اَلتَّشَاؤُمِيَّة: اَلْعَالَمُ تَصَوُّرٌ، اَلْعَالَمُ إِرَادَةٌ

شوْبنهاور هوَ أوّلُ فيْلسوفٍ فهُم كلِمةُ السِّرّ وامتلك مِفتاح لغزِ التّشاؤُميّة، بل هوَ الفيْلسوفُ الّذي اكتشف يَنبوع الشّرّ في الوُجودِ، وَراح يُفسِّرُ كُلّ ما فيهِ مِن مُظاهِرٍ تبعًا لِهذا الأصلِ، فأقام مذهبًا فلسفيًّا مُتكامِلًا، بناءً على هذا السِّرّ، وَهوَ الفيْلسوفُ الوَحيدُ مِن بيْنِ عددٍ كبيرٍ مِن أنصارِ التّشاؤُمِ الّذين كانوا مِن الشُّعراءِ. (بدوي، 1942، ص 270)

وحتى في مجال الأخلاق والسياسة كان التشاؤم هو حجر الزاوية في نظرياته، فالأخلاق تنشأ نتيجة لمحاولة وقوف أنانية الفرد ضد أنانية الآخرين، أمّا الدولة فهي تنشأ للحد من الظلم وليس لأداء أي أدوار أخرى. (بيرهييه، 1985، ص 239) فقد كان التشاؤم هو التبرير الفلسفي، الذي يغطي عن عبث كل عمل سياسي، إنّه الوظيفة الاجتماعية للدفاع غير المباشر، كي يسوق ويبين فلسفيا أن المجتمع والتاريخ بلا قيمة. (لوكاش، د.ت، ص 14)

وتَرتَكِز فَلسفَة شُوبنْهاور التَّشاؤميَّة بل وفلْسفته عُمومًا على تَقسِيم العالم إِلى جانبَيْنِ: الجانب المادِّيُّ الظَّاهر، وَيطلِق علَيْه (تَصوُّر)، والْجانب

الميتافيزيقيُّ اَلخَفِي وَيطلِق عليْه (إرادة)؛ حَيْث يَعدّ أنَّ العالم هُو تَصَورنَا اَلخَاص النَّابع مِن إرادتنَا. (شوبنهاور، 2021، ص 9) وَلِهذَا فالْعالم يَتَكوَّن مِن الذَّات اَلتِي تُدْركه والْموْضوعات المحْسوسة، والْفَهْم هُو مَا يَجعَل الإدْراك مُمْكنًا.(شوبنهاور، 2016، ص 66)

وَهذَا التقسيم هو مَا يُميز طرح شُوبنْهاور –من وجهة نظره- عن المحاولات الفلْسفيَّة السَّابقة، اَلتِي كَانَت تُرتَكب الخطأ ذَاتَه، وَهُو الانْطلاق إمَّا مِن الذَّات أو الموْضوع، وتفسِّر أَحدَهمَا مِن الآخر. (شوبنهاور، 2016، ص 73) على الرَّغْم مِن أنَّ مُحاولته تُرتَكب الخطأ ذَاتَه، لِكوْنهَا تَنطَلِق أيْضًا مِن الذَّات، لِأنَّ التَّصَوُّر هُو أحد تجلّياتهَا.

1–عَالَمُ اَلتَّصَوُّرِ (اَلْعَالَمُ اَلْمَادِّيُّ)

فِي القسْم الأوَّل مِن كِتابه (العالم إرادة وتمثّل) يَعرِض شُوبنْهاور أَسَاس فلْسفَته، القائم على اِعتِبار العالم مُجرَّد اِمتِثال، لِكوْنه مَوجُود بِفَضل ترْكيبنَا لِأجْزائه مِن وَقائِع الخبْرة، فَتصبِح لَديْنَا وَقائِع مُؤَولَة وَمرئية، فِي صُورتِي لِزمان والْمكان، وندْركهَا بِالْفَهْم اَلكُلي القائم على مَبدَأ السَّببيَّة (اَلعلية)، بِمعْنى أنَّه لَا ذات دُون مَوضُوع ولَا مَوضُوع دُون ذات، فالْعالم اَلوحِيد هُو العالم المعْروف بِالنِّسْبة لَنَا. (رويس، 2003، ص 34)

وَلذَلِك يُعتَبر شُوبنْهاور بِشَكلٍ عامٍّ مِثاليًّا، خَاصَّة فِيمَا يَتَعلَّق بِموْقفه مِن وُجُود العالم والْمادَّة؛ حَيْث يراهمَا صُورَة مِن صُنْع العقْل. (بدوي، 1942، ص 86) وَأنّ كُل مَوجُودٍ خَارجِيّ مَردَّه إلى الذَّات. (غريزي، 2008، ص 74) فإدْرَاك العالم مُتَوقفٌ على الذَّات اَلتِي تُدْرِكه، لِكوْنه مُجرَّد تَمثُّلٍ يُوجَد بِالنِّسْبة لِلْوعْي. (غريزي، 2008، ص 58) بِكلمَاتٍ أُخرَى، يُعَد العالم مِن حَيْث وُجوده ومعْرفته أو إدْراكه مُرْتَبِط ارْتباطًا كُلِّيًّا بِالذَّات، لِأَنه مُجرَّد تَصوُّرٍ لَهَا، فالذَّات هِي اَلتِي تَصنَع العالم وَهِي اَلتِي تُدْركه، ولَا وُجُود لَه بِمعْزل عَنهَا.

فالذَّات تُدْرِك العالم مِن خِلَال معارفنَا اَلتِي تَصلنَا عَبْر اَلحْواس، وَالتِي بِدونهَا لَا يُمكِن حَتَّى تَخيُّل العالم، وَلِهذَا السَّبب هُو يَحْتاج إلى الذَّات العارفة كدعامة لِوجوده. (شوبنهاور، 2016، ص 79) ثُمَّ بَعْد ذَلِك يَأتِي دَوْر (مَلكَة الفهْم) حِين تَقُوم بِأداء وظيفتهَا الأساسيَّة، وَهِي إدرَاك العلاقات السَّببيَّة والرَّبْط بَيْن العلل ومعلْولاتهَا، وَتحوِيل الإحْساس اَلفَج إلى إدرَاك. (شوبنهاور، 2016، ص ص 53، 54)

والْعالم مَوجُود وُجودًا مادِّيًّا موْضوعيًّا فجًّا، تَستقْبِل الذَّات العارفة مُعْطياته مِن خِلَال اَلحْواس، وَمِن ثَمَّ تَبدَأ فِي تَرتِيب تِلْك المعْطيات مِن خِلَال مَلكَة الفهْم، اَلتِي تُدْرِك العلاقات السَّببيَّة، وَمِن هُنَا يَتَحقَّق الإدْراك، وَمِن الواضح تَأثُّر شُوبنْهاور بِالنَّظريَّة النَّقْديَّة لِلْمعْرفة عِنْد (كانْط) وَالتِي تَستَنِد إلى ذات الخطوات بِالْجَمْع بَيْن الجوانب الحسّيَّة والْعقْليَّة فِي تَحقُّق مَعرِفة العالم.

وَإنْ كان شُوبنْهاور يُؤيِّد بِشَكل وَاضِح الحتْميَّة العلْميَّة ويرْفض الاحْتماليَّة، مُعْتبرًا أنَّ الطَّبيعة لَا تَنسَى قوانينهَا ولو مَرَّة وَاحِدة. (شوبنهاور، 2006، ص 241) وَيرَى أنَّ الظَّواهر مُرتبطَة بِبعْضهَا البعْض، وَكُل حدثٍ مُرْتَبِط بِحَدثٍ قَبلَه ويؤثِّر فِي حدث بُعدُه، مِمَّا يُعينني ترابطهَا فِي سِلْسلة لَا نِهائيَّةٍ وَأزليةٍ. (بدوي، 1942، ص 82)

2– عَالَمُ اَلْإِرَادَةِ (اَلشَّيْءُ فِي ذَاتِهِ)

العالم المؤضوعيّ (العالم كتصوُّرٍ) فِي نظر شُوبنْهاور لَيْس هُو الجانب اَلوحِيد لِلْعالم، بل يُمثِّل جانبه الخارجيُّ فقط، إذ لِلْعالم جَانِبٌ مُخْتَلِفٌ تمامًا، وَهُو وُجوده الأعْمق (الشَّيْء فِي ذَاتِه) أو مَا نُسَميه (الإرادة). (شوبنهاور، 2016، ص 80) وَترتبِطُ نظريَّةُ شوْبنهاوِر عنِ التّشاؤُمِ بنظريّتِهِ عنِ الإرادةِ، والّتي تحمِلُ بذور التّشاؤُمِ، لِأنّها أصلُ الشّرِّ المسيْطِرِ على العالِمِ؛ ولِأنّ مِن صِفاتِها الصّيْرورة والصِّراعُ الأبديُّ والرّغبةُ الّتي لا تُهدأُ، مِمّا يَجعلُها مصدرًا لِلألمِ والمعاناةِ في العالمِ. (توفيق، 1983، ص 65).

فعالم التَّجْربة الخارجيَّة، (عَالَم المعْرفة العقْليَّة وَالعِلم) مَا هُو إلَّا تَصوُّر، أَمَّا (الإرادة) فَهِي الحقيقة الجوْهريَّة، اَلتِي تَقِف وَرَاء كُلِّ شَيْءٍ وجوْهر كُلِّ شَيْءٍ.(تسيمر، 2011، 144) فَهِي جَوهَر اَلوُجود وماهيَّته، بيْنمَا الحيَاة مَا هِي إلَّا العالم اَلمرْئِي الظَّاهر، والْمرْآة اَلتِي ترى الإرادة فِيهَا صُورتَهَا. (كامل، 1991، ص 80)

والْإرادة وحْدهَا تَكون شيْئًا فِي ذَاتِه، فَهِي فِي ذاتهَا لَيسَت تمْثيلا وَإنمَا كُلَّ تَمثِيلٍ وَكُل مَوضُوعٍ يُعد وُجودًا ظَاهرِيا وتجْسيدًا لَهَا، إنَّهَا اَلجْوهر الأكْثر عُمْقًا، واللُّبُّ بِالنِّسْبة لِكلِّ شَيْءٍ جُزْئِيٍّ أو كُلِّيٍّ. (شوبنهاور، 2006، ص 209)، وبِكلمَاتٍ أُخرَى يرى شُوبنْهاور أنَّ العالم المادِّيَّ الظَّاهريَّ، يُمثِّل اَلجُزء المؤضوعيُّ مِن العالم، وَهُو جُزْء (مُنْفَعِل) بيْنمَا اَلجُزء اَلخَفِي (الميتافيزيقيَّ) هُو اَلجُزء (الفاعل) والْمحرِّك الحقيقيّ لِلْجزْء المادِّيِّ المؤضوعيّ الظَّاهر.

ولَا يَستخْدِم شُوبنْهاور مُصطَلَح الإرادة وفْقًا لِلْمعْنى المأْلوف، أيْ تِلْك اَلتِي تسْبقهَا الدَّوافع وتصْحبهَا المعْرفة ويعْقبهَا العقْل، فَهِي إرادة شِرِّيرة عَمْياء غَيْر عَاقِلةٍ، تَندَرِج تَحتهَا وتتْبعهَا كُلًّا مِن اَلقُوة وَالفِكر. (غريزي، 2008، ص 92) والْإرادة بِالْمعْنى الواسع فَهِي لَا تَشمَل فقط على الأعْمال القصْديَّة، بل تَشمَل أيْضًا العادات والْغرائز والانْدفاعات والْميول أيّ أَنهَا لَا تَسترْشِد بِالْعَقْل. (غريزي، 2008، ص 110)

فالإرادة تَتَجلَّى بوِصْفِهَا اِنْدفاعًا أَعمَى، وَقوَّة دَافِعة غَاشِمة غَامِضة عَارِية تمامًا عن أيّ مَعرِفةٍ مُبَاشَرةٍ. (شوبنهاور، 2006، ص 265) وَلقَد اِسْتخْدم شُوبنْهاور مُصطلَح الإرادة لِيجْعل مِنْه التَّسْمية المشْتركة لِلْعدِيد مِن الحالات الإنْسانيَّة، وأدْخلهَا فِي فَجَوات اَللغَة. (نيتشة، 2001، ص 12)

وَتُعَدّ ظَواهِر العالم الموْضوعيّ المادّيّ مُجرَّد تجلّيَاتٍ لِلْعالم اَلخَفِي؛ فالْإرادة تَتَحقَّق بِدرجَاتٍ مُتفاوتةٍ، فَهِي فِي المادَّة وظواهر الطَّبيعة، بل إنَّ قُوَّة الطَّبيعة، هِي الإرادة ذَاتُها فِي دَرجَة مِن دَرَجات تَجسدِها. (شوبنهاور، 2006، ص 247) كمَا يُمْكِن أنْ نلْحظَهَا فِي بَعْض الحيوانات، وَلَكنهَا تَتجلَّى بِشَكلٍ أَكبَر فِي الإنْسان، حَيْث تُبْرِز الإرادة فِي الفرْديَّة وسماتهَا المخْتلفة. (شوبنهاور، 2006، ص ص 237، 238)

والْإرادة هِي مِفتَاح تَفسِير ظَاهِرة وُجُود الفرْد ومغْزَاه فِي العالم. (شوبنهاور، 2006، ص 194) فكُلُّ فَرْدٍ مِنَّا يُدْرِك إرادَته وفرْديَّته بِوعْيه المباشر لِذاته، وَدُون أيِّ تَصوُّرٍ. (شوبنهاور، 2006، ص 211) وتَتحقَّق الإرادة مِن خِلَال (الجسْم)، فَكُل حَرَكَة يَقُوم بِهَا الجسْم بِمَا فِي ذَلِك (اَللَّا إرادِيَّة) هِي فِي الحقيقة تَجسِيد لِلْإرادة، إِلى اَلحَد اَلذِي يدْفعه إِلى تَسمِية الجسْم (التَّحَقُّق الموْضوعيُّ لِلْإرادة) objectivity of the will، فَحتَّى اللَّذَّة والْأَلم مُرْتبطان بِالْإرادة، فالْأَلم هُو كُلُّ فِعْل يقع على الجسْم مُخالِفًا لِإرادته، واللَّذَّة هِي كُلُّ فِعْل يقع على الجسْم مُوافِقًا لِإرادته. (شوبنهاور، 2006، ص 195).

والتَّفْسير الفسْيولوجيُّ لِلْجسْم لَا يَسلُب إِلَّا قدْرًا ضئيلاً مِن الحقيقة الفلْسفيَّة اَلتِي تَقُول إنَّ مُجمَل وُجُود الجسْم ومحصِّلة وَظائِفه، إنَّمَا تُجسِّد لِتلْك الإرادة اَلتِي تَظهَر فِي الأفْعال الخارجيَّة لِلْجسْم، وَالتِي تَحدَّث وفْقًا لِلدَّوافع، حَتَّى وَإِنْ كان لِكلِّ عُضْو أَسبَاب مُختلفَة لِتحْريكه يُمْكِن تفْسيرهَا فِسْيولوجْيَا فَإنّ الحرَكة اَلكُلية والْمتسلْسلة لِلْجسْم لَا يُمْكِن تفْسيرهَا بِغَير الإرادة. (شوبنهاور، 2006، ص 205).

وذلك لأنَّ إرادة الفرْد تَندَمِج مع إِرادة العالم، ومَا فصلهَا عَنْه إِلَّا بِسَبب جِهَاز الإدْراك الذَّاتيّ الحِسّيّ، وَلذَلِك فَإنّ الحقيقة هِي وُجُود إِرادة ضَخمَة وَاحِدة تَشمَل كُلَّ المخْلوقات والْعالم بِأسْره. (رسل، 2012، ص 336) فشوبنْهاور يُؤكِّد على أنَّ إدرَاك الفرْد لِإرادته، اَلتِي يُدير بِهَا شُؤونه اَلخَاص، لَا يَعنِي اِنْفصاله عن الإرادة الضَّخْمة اَلتِي تَتَحكَّم فِي العالم، بل قد تُصْبِح الإرادة الفرْديَّة مُجرَّد وَهْمٍ، لِأنَّ اَلكلِمة النِّهائيَّة لِإرادة العالم أو الحيَاة.

ثالِثًا: اَلْحَيَاة بَيْنَ اَلْأَلَمِ وَالْمُصَادَفَةِ وَاللَّا مَعْنًى

1- اَلْحَيَاةُ خُدْعَةٌ مُمِلَّةٌ وَالْوِلَادَةُ جَرِيمَةٌ

كُلُّ هَذِه العوامل، جَعلَت شُوبنْهاور يَتبنَّى رُؤيَةً تشاؤميَّةً ترى أنَّ الوضْع فِي الحيَاة سَيِّئٌ اليوْم، وسيكون غدًا أَكثَر سُوءًا، وتسْتَمرَّ الحيَاة على هذَا الشَّكْل فِي سُوءٍ مُسْتَمِرٍ، حَتَّى نَصِل إِلى أَسوَأ مَا يُمْكِن اَلوُصول إِلَيه.(Schopenhauer, 2005, p 5) وَكُلَّما عاش الإنْسان أَكثَر تَيقَّن أنَّ الحيَاة مَا هِي إِلَّا خَيبَة أملٍ، بل خُدعَة، إنَّهَا تُشْبِه عرْضًا سِحْريًّا تُشاهِده مراراً وتكراراً، بِطبيعة اَلحْال سَيفقِد دهْشته بَعْد أنْ تَرَاه لِلْمرَّة اَلأُولى، إنَّ اَلخُدع مُصَممَةٌ على أن تُشَاهِد مَرَّة وَاحِدةً فقط. (شوبنهاور، 2019، ص 14)

ولَا يُخْفِي شُوبنْهاور شُعوره بِالضِّيق مِن ذلك التَّفاؤل الزَّائف لَدى الفلاسفة المحْدثين، فالْإنْسان بِالنِّسْبة لَه مُجرَّد كَائِنٍ تَدفعُه الإرادة العمْياء إِلى الاشْتهاء الدَّائم، وَفِي المحصِّلة فَإنَّه إمَّا يَشعُر بِالْمَلل والْخواء عِنْد نوالِه، أو وُرُود المهالك وَعدَم الفوْز بِه، مِمَّا يَجعَل اَلوُجود عِبْئًا ثقيلا لَا يُطَاق، والْحيَاة بَندُولا يَتَأرجَح بَيْن الألم والْخواء. (شوبنهاور، 2012، ص ص 34، 35).

فالْإنْسان بَيْن طَرفَيِ الرَّحى إمَّا المعاناة أو الملل. (شوبنهاور، 2019، ص 12) لِكَون الرَّغبات لَا نِهائِيَّةٍ، فَكُل إِشبَاعٍ يَنثُر بِدوْره بُذُور رَغَباتٍ جَدِيدَةٍ، وَلذَلِك لَا يَكُون الإنْسان سعيدًا أبدًا، بل يَقضِي حياته يُصَارِع بَحثًا عن شَيْءٍ يَحسُب أَنَّه يجْعله سعيدًا، وَنادِرا مَا يَصِل، وَحتَّى فِي المرَّات القليلة اَلتِي يَصِل فِيهَا، يَصِل مُنْهكًا ويتساوى حِينهَا السَّعادة والتَّعاسة. (شوبنهاور، 2019، ص ص 34، 35)

وَلَا يُعاني الإنسانُ آلامهُ هوَ فحسبُ، بل يُعاني كُلَّ آلامِ الآخرينِ أيْضًا، ففي نظرِ شوْبنُهاوِر، عِندما يَتبيّنُ لِلإنسانِ أنّ كُلَّ الظّواهِرِ تتحكّمُ فيها عِلّةٌ واحِدةٌ، فإنّ ذلِك يَجعلُهُ يُشعِرُ بِكُلِّ الآلامِ المْوجودةِ في العالمِ، لِأنّهُ يُشعِرُ بأنّها آلامهُ، كما يَسمعُ صوْتًا يُنادي في أعماقِ الوُجودِ، بِأنّ كُلّ شيْءٍ مصدرُهُ إرادةٌ واحِدةٌ. (غريزي، 2008، ص 144)

ويُعدّ الإنْسان فِي نظر شُوبنْهاور أَكثَر الكائنات تَعاسَة؛ لِكوْنه يُفكِّر بِطبيعته فِي الماضي مِن جِهةٍ، والْمسْتقْبل مِن جِهةٍ أُخرَى، فالْإنْسان يَملِك آلة لِتكْثِيف مُتَعه وآلامه وتخْزِينهَا، وَهُو مَا يَجعَل اَلوُحوش فِي حَالَة أَفضَل مِنْه، لِكوْنِهَا تُعَانِي الألم لِلْمرَّة اَلأُولى فِي كُلِّ مَرَّة بِشَيءٍ مِن اللَّامبالاة. (شوبنهاور، 2019، ص ص 17، 18) ويشير شُوبنْهاور هُنَا إِلى الذَّاكرة البشريَّة، وميْل البشر لِلْحنِين إِلى الماضي مِن جِهةٍ، والتَّطلُّع إِلى المسْتقْبل مِن جِهةٍ أُخرَى، وَهُو مَا يجْعلهم يفْقدون حَتَّى اللَّحْظة الرَّاهنة.

والْجدير بِالذِّكْر أنَّ الإنْسان والْوحوش لَهُم نَفْس الحاجات، وَلكِن اَلْوُحوش تَحصُل عليْهَا بِثَمنٍ أقلّ مُقَارنَة مع مَا أنفَقه الإنْسان مِن عَذَاب وَألَم، إنَّ اَلْوُحوش تعيش حَيَاة أَفضَل مِن البشر لِأنَّهَا لَا تَعرِف مَعنَى الأمل، ولَا تَشغَل تفْكيرهَا بِذَلك المسْتقْبل اَلمشْرِق، وَوَعيهَا مَحدُودٌ بِاللَّحْظَة الرَّاهنة فقط. (شوبنهاور، 2019، ص ص 19، 20) إضافةً إلى كوْنهَا لَا تَعرِف حَقِيقَة المَوْتِ، وَلذَلِك تُعَانِي ألما بِدرجةٍ أقلّ، كمَا لَا تعيش فرحًا بِنَفس دَرجَة الإنْسان. (Schopenhauer, 2005, p 11)

وَبِهذَا تُصْبح الحيَاة مُجَرَّد حدثٍ خَاسِرٍ تُعكِّر صَفْو (اَللَّا وُجُود). (شوبنهاور، 2019، ص 14) فَفِي دَهشَةٍ كُبرى يَجِد الإنْسان نَفسُه مَوجُوداً فَجأَة، بُعْد آلاف اَلسنِين مِن عدم اَلوُجود، لِيعيش فَترَةً قَصِيرَةً وَيعُود مَرَّةً أُخرَى لِعَدم اَلوُجود. (شوبنهاور، 2019، ص 32) وَلذَلِك مِن الأفْضل أنَّ لَا تُولّد، وَإن وُلدَت فلَا تَتَمنَّى حَيَاة طَوِيلَةً، لِأنَّ من عاش كثيرًا رَأْي شرًّا كثيرًا. (شوبنهاور، 2018، ص 312)

ويرى شُوبنْهاور أنَّ اِسْتمْراريَّة اَلوُجود الإنْسانيّ رَغْم كُلّ هذَا الألم والْمعاناة، يَرجِع إلى لَا عقْلانيَّة الإرادة، فَهِي اَلتِي تَجعَل الإنْسان يَتعلَّق بِالْحياة، على الرَّغْم مِن أنَهَا لَيسَت خَلِيقَة بِهَذا التَّعلُّق، بل إنَّ (اَللَّا وُجُود) خَيْر مِن اَلوُجود، كمَا أنَّ بُرهَة الحيَاة لَا تَبدُو شيْئًا، وسط تَيَّار الزَّمَان اللَّانهائيّ. (غريزي، 2008، ص 121)

ولذلك لَا تُعدّ الولادة في نظر شُوبنْهَاوَرْ جَرِيمَة فحسب، وَإنَّمَا مُصِيبَةٌ عَظِيمَةٌ، وَبِالتَّالِي لابد من إدَانَة اَلْإنْجَابُ، وهَذَا اَلنَّوْعَ مِنْ كَرَاهِيَةِ اَلْبَشَرِ، يُعَدُّ سَبَبًا لِرَفْضِ وَاحْتَقَارَ اَلتَّنَاسُلُ وَالتَّكَاثُرُ اَلْبَشَرِيُّ، وَكُلُّ مَا يَتَّصِلُ بِتَكْوِينِ اَلْأَسْرِ وَإِنْجَابِ اَلْأَطْفَالِ، لذلك غَالِبًا مَا يُبْدِي كَرَاهِيَةً كَبِيرَةً لِلنِّسَاءِ، حَيْثُ يشكلن خَطَرًا كَبِيرًا عَلَى اَلرِّجَالِ، لِأَنَّهُنَّ يُشْجعْنَ اَلرِّجَالُ عَلَى اَلِاسْتِمْرَارِ فِي عَمَلِيَّةِ اَلْإِنْجَابِ. (تايلور، 2019، ص 980)

ولو أنَّ الأطْفال لَا يَأتُون إلى العالم إلَّا بِالْعَقْل الصَّرْف وَحدَه، فهل كان العرْق البشَريُّ سَيوجِد ؟ أَلِن يَتَعاطَف الإنْسان مع الأجْيال القادمة ؟ أو لَا يَقُوم بِنفْسه بِفَرض ذَلِك العبْء عليْهم بِدمٍ بَارِدٍ. (شوبنهاور، 2019، ص 15) فالزَّواج والْإنْجاب في نظر شُوبنْهاور، أَعمَال لَا تُمت لِلْعقْل بِصلةٍ، لِأنَّهَا السَّبب الأساسيُّ فِي اِسْتمْرار الجنْس البشَريّ فِي الحيَاة، المليئة بِالْبؤْس والْأَلم، وبالتَّالي لَا يُمْكِن لِعاقلٍ أن يَقُوم بِهَا.

إضافة إلى ذلك يَعدّ شوبنهاور أنَّ حَقِيقَة المَوْتِ تَجعَل حَجْم المعاناة في الحيَاة الإنْسانيَّة أَكبَر بِشَكل لَا يَتَناسَب مع مَا فِيهَا مِن لَذَّة. (Schopenhauer, 2005, p 11)على الرَّغْم مِن أنَّه لَا يَعتَبِر المَوْتُ شرًّا خالصًا، فَهُو رَغْم كُلّ مَا فِيه مِن خُسْران إلَّا أنَّه فِي النِّهاية يُخَلصنَا مِن ملل العالم وآلامه. (فيري، 2015، ص 274) كمَا يَعدّ أنَّ الانْتحار هُو اَلهُرُوب اَلأخِير اَلذِي يُعَدّ اِنْتصارًا فرْديًّا على إرادة الحيَاة المسْتمرَّة فِي النَّوْع البشَريّ. (ديورانت، 1998، ص 423) ومَا ذَلِك سِوى تَأكِيد لِلْمبْدأ السَّابق، بِأن اَللَّا وُجُود خَيْر مِن اَلوُجود.

وَلقَد آمن شُوبنْهاور بِالْخلود الإنْسانيّ، واعْتبره العزَاء اَلوحِيد اَلذِي يُمْكِن مِن خِلاله تَجاوُز إشْكاليَّة المَوْتِ، وَلَكنَّه خُلُودٌ يَختَلِف عن اَلذِي تَقترِحه الأدْيان، فليْس ثَمَّة حَيَاةٌ بَعْد المَوْتِ، بل هُو خُلُودٌ لِلنَّوْع الإنْسانيّ، فالْمَوْتُ يَطَال الأفْراد ولَا يَطَال الإنْسانيَّة، وَلذَلِك كان لِزامًا عليْه أن يَدفَع ثمنًا باهظًا مُقَابِل هذَا العزَاء، وَهُو التَّخَلّي عن الفرْديَّة بِشَكلٍ نِهائيّ، واعْتبارهَا مُجَرَّد وَهْمٍ. (فيري، 2015، ص 272) فليْس هُنَاك أَهَمِيَّةٌ لِلْبشر كأفْرَادٍ مُعيَّنِين، فَهُم لَيسُوا سِوى تَجْسيدات عَابِرةٍ لِلنَّوْع، سُرْعان مَا يَحُل محلُّهَا الجيل اللَّاحق. (هيوستن، 2012، ص 53)

2- فَوْضَوِيَّة اَلْحَيَاةِ وَعَبَثِيَّتِهَا

يُفنِّد شُوبنْهاور الفكْرة المتداولة فِي الأدْيان والْفلْسفات اَلكُبرى، بِأنَّ العالم مَعقُول وأنَّ لِوجودنَا مَعْنى، مُعْتبِرًا أنَّ سبب هذَا الوهْم عدم التَّمْييز بَيْن العالم بِوصْفه تُمثلَا (الجانب الظَّاهر مِن العالم) وَالذِي يُمْكِن تفْسيره وفهْمه عِلْميًّا وَسببِيا، وَبيَّن عَالَمَ الإرادة اَلذِي تُسيْطِر عليْه اَلْفَوضى، لِأنَّ العالم بِوصْفه إرادة، أو (العالم اَلذِي تَتَحكَّم فِيه اَلقُوى العمْياء)، هُو عَالَمَ تَعمُّه اَلْفَوضى وَتسُوده غَرائِزٌ ودوافعٌ لَا وَاعِيةٍ، وَهُو عَالَمَ خالٍ مِن المعْنى. (فيري، 2015، ص 257-259)

إنَّ الحيَاة فِي نظر شُوبنْهاور مُجَرَّد لُعبَةٍ تُشْبِه (زَهْر النَّرْد)، والْأَقْدار تَخلِط الأوْراق والنَّاس يلْعبون، والْغلبة فِي هذَا العالم (عَالَمَ الإرادة) لِلْحظِّ أو لِلصُّدْفة، وَهِي قُوَّةٌ مَاكِرةٌ غَيْر جَدِيرَةٍ بِثقة الإنْسان؛ لِأنَّهَا لَا تُعْطِي أيَّ قِيمةٍ لِاسْتحْقاقاته، ولَا تُبَالِي بِمَا يَبذُله مِن جُهْدٍ لِلْحصول عليْهَا. (شوبنهاور، 2018، ص ص 260-262) ونظرًا لِغياب النِّظَام والسَّببيَّة وغياب الغاية، يَتحوَّل العالم إلى مَكَان لِلْألم والْمَلل.(فيري، 2015، ص 267)

والْجدير بِالْإشارة فِي هذَا السِّيَاق أنَّ النُّقْطة الوحيدة اَلتِي اِختلَف فِيهَا شُوبنْهاور مع (كانْط)، وانْتقده فِيهَا، رَغْم إقْراره بِأنه أحد مَصادِر فلْسفَته وأسْتاذه الأوَّل، تَمثلَت فِي مَوقِف (كانْط) مِن الصُّدْفة، وَالتِي يرى أنَّ لَهَا أسْبابَهَا أيْضًا، بيْنمَا يرى شُوبنْهاور أنَّ ذَلِك تَناقُضا وَخطَأ كبيرا وقع فِيه كانْط، لِأنه يُفكِّر بِطريقةٍ مُجرَدَةٍ لَا تَتوافَق مع مَا هُو وَاقعِيٌّ حِسِّيٌّ. (شوبنهاور، 2014، ص 121)

لِذَلك يُؤَكِّد شُوبنْهاور على أنَّ الإرادة ذاتَها بِلَا سببٍ، ومبْدأ اَلعِلة الكافية هُو فقط صُورَة المعْرفة، لِذَلك هُو يَسري على مَجَال التَّمْثيل، وَهُو مَجَال الظَّواهر، أيْ المظْهر اَلمَرْئِي لِلْإرادة، لَا على الإرادة ذاتها وَالتِي فِي مُجملهَا بِلَا سببٍ. (شوبنهاور، 2006، ص ص 204-212) كمَا يرى أنَّ التَّفْسيرات العلْميَّة والْعقْليَّة القائم على السَّببيَّة، تضيع فِي بَحْر الرِّمَال لِأنَّ السَّببيَّة ذاتَها بِلَا سببٍ. (فيري، 2015، ص 261) وَهنَا يُؤَكِّد مَرَّة أُخرَى على أنَّ الحتْميَّة العلْميَّة وقوانين الطَّبيعة، تنطَبِق فقط على العالم المادِّيِّ (العالم بِوصْفه تصوُّرًا)، ولَا تنطَبِق على العالم الجوْهريِّ (العالم بِوصْفه إرادة).

وَمِن الواضح أنَّ شُوبنْهاور يَتكِئ فِي طَرحِه هذَا على نَقْد (هِيوم) لِلسَّببيَّة، وأيْضًا مُغَالطَة الأسْباب اللَّامتناهية، اَلتِي تُؤَكِّد أَنَّه لَا يُمْكِن أنْ نَجِد لِكلِّ سبب سببًا آخر خلفه، لِكَون ذَلِك يسير إِلى مَا لَا نِهاية. ولذلك يؤكد أنّ العالم بِلَا مَعْنى لِأَنَّه يَفتَقِر إِلى السَّببيَّة، حَتَّى وَإِنْ بدتْ بَعْض الأفْعال مُتماسكة فَهِي تَبدُو كَذلِك بِسَبب وُجُود الدَّافع، حَيْث يَقُوم الإنْسان بِمجْموعةٍ مِن الأفْعال، لِتحْقِيق هدفٍ مَا واسْتجابة لِدافع مُعيَّن، بيْنمَا فِي الحقيقة لَا يُوجَد سبب لِلدَّافع نَفسِه، فحين يَسأَل المرْء نَفسُه عن الدَّافع اَلْعام، فلن يَجِد مَا يُجيب بِه. (فيري، 2015، ص 265).

يُضَاف إِلى ذَلِك أنَّ البشر لَا يمْلكون مِن أَمرِهم شيْئًا، ولَا يتمتَّعون بِأَقل مُسْتويات اَلحُرية، فَهْم يتوهَّمون بِحياةٍ سَعِيدَةٍ، حَتَّى تصْفعَهم يد الحيَاة صَفعَة مُوجعَةً، لِكيْ تُثْبِت أن لَيْس لَهُم مِن أَمرِهم شيْئًا؛ فالْأقْدار هِي اَلتِي تَخْتار لَهُم زوْجاتهم وأوْلادهم وأشْكالهم. (شوبنهاور، 2018، ص 163) لِأنَّ قُوَّة الإرادة (المطْلقة) تَسُود عَالَم الوعْي، وَتقِف دُون وَعْي مِنَّا وَرَاء اِخْتياراتنا، مِمَّا يُلْغِي أيَّ مَعْنى أو قِيمة لِمفْهوم الاخْتيار اَلحُر، ولَا مَكَان لِلْحرِّيَّة الإنْسانيَّة، فَهِي مَحْض وَهْم. (فيري، 2015، ص 270).

حتَّى حِين يَبدُو الإنْسان حُرًّا بِطريقة قَبْليَّة سيَكتَشِف مُنْدهِشًا بَعْد التَّجْربة أَنَّه لَيْس حُرًّا، بل هُو خَاضِعٌ لِلضَّرورة، وأنَّ تأمُّلاته وقراراته لَا تُغيِّر مِن سُلوكه شيْئًا، بل قد يعيش طَوَال حَياتِه بِالشَّخْصيَّة اَلتِي يُدينهَا. (شوبنهاور، 2006، ص 213) وَذلِك لِأنَّ الإنْسان مَحكُومٌ بِالضَّرورة البيولوجيَّة، فَهُو مِثْل الحيوان مَحكُوم بِغريزتيْنِ أساسيَّتيْنِ، هُمَا اَلجُوع والرَّغْبة الجنْسيَّة، ومنْهمَا يَنبَثِق مَشهَد الحيَاة اَلمعقد. (شوبنهاور، 2019، ص 34).

والْإنْسان يُشْبِه حجر (أِسْبينوزَا) اَلذِي يَقذِف فِي اَلْهواء، مُتصوَّرًا أنَّ اِنْطلاقته كَانَت بِمَحض إرادَته، "وَإنّ مَا يَظُنه الحجْر هُو مُشَابِه لِظنِّ الإنْسان." (شوبنهاور، 2006، ص 232) فالْقوَّة اَلتِي تَدفَع بِالْحَجْر فِي اَلْهواء، مَجهُولة وغيْر قَابلةٍ لِلتَّفْسير بِالنِّسْبة لَه، كَذلِك الدَّوافع اَلتِي تَتجلَّى فِي الإرادة الإنْسانيَّة مَجهُولةٌ وغيْر قَابلة لِلتَّفْسير.

وَلذَلِك كان شُوبنْهاور يُؤْمِن بِعَدم التَّغْيير، وأنَّ مِن يَحدُث فِي العالم مِن تَغيُّر وَمِن وِلادَاتٍ وميتاتٍ كُلهَا وَهمِيةٌ، لِأنَّهَا فِي المحصّلة تَعادَل السُّكون. (لوكاش، د.ت، ص 43) لِأنَّ طَبِيعَة الحيَاة تقدّم لَنَا نفْسهَا كأنَّهَا مَقصُودة ومدبِّرة، لِتوقظ فِينَا الاعْتقاد بِأنَّ لَا شَيْء فِيهَا جديرٌ بِكفاحنَا وجهودنَا، وأنَّ العالم مَصِيرَه الإفْلاس، والْحياة عمل فَاشِل لَا يَقُوم بِتغْطِية نفقاته. (ديورانت، 1998، ص 420) فصراع الحيَاة فَارِغ فِي جوْهَرِه لَا رِبْحٌ فِيه ولَا خَسارَةٌ ولَا حَتَّى قِيمةٌ، ولو كان لَه أيُّ شَيْءٍ مِن ذَلِك، مَا كَانَت نِهايَته اَللَّا شَيْء (الموْتُ). (شوبنهاور، 2019، ص 37)

ثَالِثًا: خَلْقُ اَلْعَالَمِ وَغَايَتِهِ

1- اَلْإِرَادَة اَلشِّرِّيرَة اَلْعَمْيَاء

يُجِيبُ شوْبنُهاوِر على السُّؤالِ "مِن خلقِ العالمِ" إجابةً واضِحةً وَمُباشرةً، بل وَمُدعِمةً بِالحُججِ أيْضًا، حيْثُ يَعدّ أنّ هذا العالِمِ لا يُمكِنُ أنْ يَكون مِن صُنعِ كائِنٍ كامِلِ (اللهِ)، فهُناك شيْئانِ يُجعلانِ مِن المستحيلِ التّصديق بِأنّ هذا العالِمِ هوَ العملُ النّاجِحُ لكائِنٍ كامِلِ الحِكمةِ كُلِّيُّ الخيْرِ، فالأوّلُ هوَ البُؤسُ الّذي يَملأُ كُلّ مكان فيهِ، والآخرُ هوَ عدمُ الكمالِ الواضِحِ في إنتاجاتِهِ، خاصّةً الإنسانُ الّذي يَبدو مهزلةٌ مُقارنةٌ بِما يَجِبُ أن يَكون عليْهِ. (شوبنهاور، 2019، ص 23) وَلعلّ أبرز مظاهِرِ هذا النّقصِ، هوَ وُجودُ الشّرِّ، فالعالِمُ يَقودُ الشّرّ خُطاهُ، وَتتحكّمُ فيهِ أقدارُ شرسة فظّة، تجعلُ النّاس مُثيرين لِلشّفقةِ بيْن مخالِبِها. (شوبنهاور، 2018، ص 44)

وَبِناءً على هذا النّقصِ لَيْس هُناك سِوَى خيارٌ واحدٌ هوَ الِاعتِقادُ بِوُجودِ الإرادةِ الشّرّيرة؛ لِأنّهُ السّبيلُ الوَحيدُ لِتبريرِ الِانحِطاطِ الأخلاقيّ لِلبشرِ، والشّرِّ الموْجودِ في العالِمِ. (Schopenhauer, 2005, p 4) مما يعني أنّ هذا العالِمِ هوَ نِتاجٌ لكائِنٍ شِرّيرٍ، أوْجد الخلق كيْ يَبتهِج بِرُؤْيَةِ مُعاناتِهِم. (بوتون، 2016، ص 215) وَيَعيشُ البشرُ مِثلُ حُملانِ الحقلِ الّتي يَنتقي مِنها الجزّارُ ضحاياهُ الواحِدةُ تلوَ الأُخرى، لِذلِك يعيشون سُعداء إذ لا يدرون المصير المشئوم الّذي يُخبّئُه لهم المرض والفقرُ. (Schopenhauer, 2005, p 4) والإرادةُ الشِّرّيرةُ بِهذا

الشّكلِ، لا تكونُ إرادةً إلهيّةً، بل إرادةً شيْطانيّةً. (رسل، 2012، ص 339).

وَحتّى لوْ أخذنا بِافتِراضِ (لِيَبنتْز) بِأنّ هذا العالِمِ هوَ أفضلُ العوامِلِ الممكِنة، فما كان على اللهِ أن يَخلُقهُ، بِما أنّهُ يَملِكُ إمكانيّة ذلِك، وحتى القوْلُ بِأنّ العالِمِ أصبح سيِّئًا نتيجةً لِأفعالِنا، ليس مبررا كافيياً، فمِن الأفضلِ أن لا يَكون، بل هذِهِ الفرضيّةُ ترتقي إلى اتّهامِ مريرٍ لِلخالِقِ، فنحنُ نأتي إلى العالِمِ محمِلين بِالخطيئةِ، وَيَكونُ وُجودُنا فيهِ بائِسًا، وَفي نِهايَةِ المطافِ نموتُ. (Schopenhauer, 2005, p p 14, 15)

وَعلى الرّغمِ مِن ذلِك فإنّهُ وَجد بعض الأفكارِ الّتي تتّسِقُ مع فلسفتِهِ في النُّصوصِ الدّينيّةِ، وَذلِك حين حاوَل إعادة تفسيرِ ما تقولُهُ الكُتُبُ الدّينيّةُ، مِن أنّ العالم خُلِق بعد الخطيئةِ الأوْلى، وَيُستدلُّ بِما جاء في العهدِ القديمِ ، كما يُعلِنُ صِحّة المسيحيّةِ، فيما يَتعلّقُ بِتعامُلِها مع مراسِمِ الموْتِ، لِكوْنِهِما يُؤَكِّدانِ أنّ العالم ما هوَ إلّا نتيجةً خطيئةً ما، كما أنّهُ يُعبِّرُ عن مُعاناة عميقة. (شوبنهاور، 2019، ص ص 23-25) فالحقيقةُ الوَحيدةُ الّتي اتّفق فيها مع العهدِ القديمِ، هيَ أنّ التّفسير الأفضل لِوُجودِنا هوَ أنّنا نِتاجٌ لِخُطوَةٍ خاطِئةٍ وَعليْنا أن ندفع ثمنها. (Schopenhauer, 2005, p 16)

2- اَلْعَالَمُ مُسْتَعْمَرَةٌ عِقَابِيَّةٌ

البشرُ –وَفقًا لِهذِهِ النّظريّةِ- هُم كائِناتٌ وُلِدت في الخطيئةِ، وَوُجِدت لِلتّكفيرِ عنها، وَهيَ النُّقطةُ الّتي يَنطلِقُ لِلإجابةِ على السُّؤالِ المكمل للسؤال الأول "لِماذا خُلق العالِمِ ؟" وَذلِك حين يؤَكِدِ أنّ المعاناة هيَ الهدفُ الأساسيُّ لِوُجودِنا، وَإنْ لم تكُنِ المعاناةُ هيَ الهدف المباشِر لِلحياةِ، فإنّ وُجودنا يَفشلُ في تحقيقِ هدفِهِ، ذلِك لِأنّهُ مِن غيْرِ المعقولِ، النّظرُ إلى الكمِّ الهائِلِ مِن الألمِ المنتشِرِ في كافّةِ أرجاءِ العالِمِ، والنّاشِئِ عن ضروراتِ الحياةِ، أنّهُ لا يَخدِمُ أيّ غرضٍ، وَجاء بِمحضِ الصُّدفةِ، فحتّى وَإن بدت لنا المصائِبُ وَكأنّها شيْئًا اسْتِثنائيًّا، فإنّ الحقيقة تقولُ العكسُ تمامًا، فالمصائِبُ هيَ القاعِدةُ. (Schopenhauer, 2005, p4)

فالمصائِبُ ضروريّةٌ لِحِفظِ توازُنِ الحياةِ والّتي لوْلاها لأصبح العالِمُ فِرْدوْسًا وَحصل كُلُّ فردٍ على ما يُريدُ وَأُصيبُ النّاسُ بِالمللِ والضّجرِ، والنّتيجةِ الطّبيعيّةِ لِذلِك، هيَ إمّا أنْ يُنتحِر البشرُ أوْ يَتقاتلون فيما بيْنهُم، مِمّا يَعني التّسبُّب بِمزيدٍ مِن الألمِ، أكثر مِن ذلِك الّذي تُسبِّبُهُ يَدُ الطّبيعةِ. (شوبنهاور، 2019، ص 13)

وَإذا أراد الإنسانُ طريقة آمِنةٍ لِترشِدهُ في الحياةِ، وَتُزيل كُلّ شُكوكهُ فيما يَخُصُّ الطّريقة الصّحيحة لِرُؤْيَتِها، فليْس أمامهُ طريقةً أفضل مِن تعويدِ نفسِهِ، على اعتِبارِ العالِمِ مُجرّد سِجنٍ أوْ مُستعمِرةٍ عُقابيّةٍ، وَهوَ الرّأيُ الّذي تبنّاهُ وبرره بعض الآباءِ المؤسّسين (أوريجانوس Origen)، وهو ليْس ابتِكّارًا فلسفيًّا خاصًّا، بل هوَ موْجودٌ في البوذيّةِ والبراهِميّةِ وَعِند فلاسِفة اليونانِ و(شيشرون)، الكُلُّ يُجمِعُ على أنّنا نأتي إلى هذِهِ الحياةِ، لِكيْ نُعذّب على خطيئةٍ ارتكبناها في حياةٍ أُخرى. (Schopenhauer, 2005, p 18)

وَإذا اعتاد الإنسانُ على هذِهِ النّظرةِ لِلحياةِ فسوْف تُنظّمُ توَقُّعاتُهُ وَفقًا لِذلِك، وَيَتوَقّفُ عن النّظرِ إلى كُلِّ الأحداثِ البغيضةِ، وَكُلّ مُعاناةِ الحياةِ وَخوْفِها وَبُؤْسِها وَقلقِها، على أنّها شيْءٌ غيْرُ عاديٍّ أوْ غيْرُ مُنتظِمٍ؛ بل سيَجِدُ أنّ كُلّ شيْءٍ كما يَنبغي أنْ يَكون، في عالِمٍ يَدفعُ فيهِ كُلّ واحِدٍ مِن البشرِ عُقوبة الوُجودِ بِطريقتِهِ الخاصّةِ. (Schopenhauer, 2005, p19)

رَابِعًا: فَنُّ اَلْعَيْشِ اَلْحَكِيمِ

1- سبل السعادة

السُّؤال البديهيُّ في هذا السّياقِ كيْف يُمكِنُ لِلإنسانِ أنْ يَستمِرّ في الحياةِ؟-أوْ كما يَصِفُها شوْبنُهاوِر بِأنّها سِجنٌ أوْ مُستعمِرةٌ عِقابيّةٌ- مع هذا الكُمّ الهائِلُ مِن الألمِ والمعاناةِ هل ثمّة سبيلٌ لِتخفيفِ الألمِ على أقلّ تقديرٍ، بِما أنّ القضاء عليْهِ غيْرُ مُمكِنٍ لِكوْنِهِ جُزءٌ مِن الوُجودِ الإنسانيِّ؛ لِأنّ تصوُّر الحياةِ بِهذِهِ الطّريقةِ، يَجعلُ الاِستمرار فيها مُستحيلًا.

ويُعدُّ السُّؤالُ الأساس "هلِ السّعادةُ مُكِنةٌ في هذا العالم ؟" مِن أهمِّ الأسئِلةِ الّتي حاوَل شوْبنُهاوِر الإجابةِ عليْها، وَإنْ كان قد تعرّض لِهذِهِ الإشكاليّةِ في عِدّةِ كُتُبٍ، وَفي سياقاتٍ مُختلِفةٍ، إلّا أنّهُ يُمكِنُ القوْلُ إنّ شوبنهاوِر خصّص كِتابًا كامِلًا لِمُحاوَلةِ الإجابةِ على هذا السُّؤالِ، وَهوَ The Wisdom Of Life والمترجمُ إلى العربيّةِ (فنُّ العيْشِ الحكيمِ).

وَلقد وَضع خُطوطًا أساسيّةً يَرى أنّها "موجِباتُ السّعادة" وَهيَ تشملُ الطّبع النّبيل والعقل الرّاجِح والمزاج الرّائِق والنّفسُ المرحةُ والجِسمُ السّليمُ؛ لِأنّ أساس الحياةِ السّعيدةِ هيَ الصِّحّةُ الجيِّدةُ، فتِسعةُ أعشارِ السّعادةِ مشروطةٌ بِالصِّحّةِ وَسلامةُ البدنِ، وَتظهرُ أهمِّيّتُها بِمعرفةِ الفارِقِ في رِدّةِ فِعلِ الإنسانِ تِجاه الحدثِ نفسِهِ بيْن صِحّتِهِ وَمرضِهِ، والأهمُّ مِن وُجودِ النِّعمِ هوَ أنْ نُحافِظ عليْها وَنُصونها وَنُنمّيْها بدلًا مِن اللّهثِ خُلف النِّعمِ الخارِجيّةِ. (شوبنهاور، 2018، ص ص 30-33) إضافة إلى اعتبار

أن راحة البال والاستقلالية شرطان لا غنى عنها لتحقيق السعادة. (شوبنهاور، 2018، ص 75)

2- النبوغ والعزلة

على الرّغمِ مِن تعدُّدِ العوامِلِ الّتي تُعزى إليْها سعادةُ الإنسانِ، إلّا أنّ شوْبنُهاوِر يُعطي أهمّيّةً كُبرى لِقُدُراتِ الفردِ العقليّةِ في تذوقِ السّعادةِ، بل هيَ العامِلُ الأساسيُّ في تذوقِ السّعادةِ الّتي توَفّرُها الظُّروفُ الخارِجيّةُ، فالإنسانُ يَتذوّقُ السّعادة على قدرِ ما يَملِكُ مِن قُدُراتٍ عقليّةٍ. (شوبنهاور، 2018، ص 19) وَلِذلِك يَرى أنّ السّعادة تتوَفّرُ عِندما يَمتلِكُ الإنسان وَقت فراغٍ يَنمّي فيهِ مؤهِبتهُ، فمن يَملِكُ وَقتًا لِلفراغِ وَلا يَملِكُ مؤهِبةً أوْ يَملِكُ مؤهِبةً دون وَقتًا لِلفراغِ سيَشعُرُ بِالألمِ أوْ الملل. (شوبنهاور، 2018، ص 54)

فالحياةُ العقليّةُ في نظرِ شوْبنهاوِر هيَ مُنتهى غاياتِ الرّجُلِ الحكيمِ، وَتتحقّقُ فيها سعادتُهُ، وَكُلُّ غايَةٍ ما عداها تعدُّ وَسيلةً لها، وَهذِهِ الحياةُ العقليّةُ (وَعلى رأسِها الفلسفةُ) وَإن لم تجلِب لك الكثير، فهيَ تُجنّبُك الوُقوعُ في الكثيرِ مِن المخاطِرِ والآلام. (شوبنهاور، 2018، ص ص 49-51) وَلِذلِك يَضعُ المتّع الّتي تعتمِدُ على الحِساسيّةِ-كالتّأمُّل والتّفكيرِ وَنظمِ الشّعرِ والفنّ التّشكيليّ والابتِكار والتّفلسف- في أعلى مراتِبِ المتّعِ. (شوبنهاور، 2018، ص 47).

وَيُعدّ استِعمالُ الملكاتِ الفذّةِ استِعمالًا مُثمِرًا هوَ ما يُحقّقُ لِلإنسانِ السّعادة، وَهوَ بِذلِك يُميّزُها عنِ الملكاتِ البِدائيّةِ -القدُراتِ الجسديّةِ والعضليّةِ- الّتي تُكافِحُ ضِدّ الحاجةِ والعوْزِ، لِذلِك فالمتفوّقين بِعُقولِهِم يَستطيعون تذوق متّع وَمُباهِج، لا يَملِكُ الآخرون إليْها سبيلًا. (شوبنهاور، 2018، ص ص 45-49). بِكلِماتٍ أُخرى يوجدُ تناسُبٌ طرديٌّ بيْن قُدُراتِ الفردِ العقليّةِ وَبيْن سعادتِهِ، فكُلّما زادت تِلك القُدُراتُ زاد معها شُعورهُ بِالسّعادةِ، لِأنّ الشُّعور بِالسّعادةِ-كما هوَ الشُّعورُ بِالأمل- شأنٌ عقليٌّ صرفٌ مِن وِجهةِ نظرِ شوْبنُهاوَر.

وَلِكيْ نستطيع فهم تأكيد شوْبنهاوِر السّابِقِ على أهمّيّةِ القُدُراتِ العقليّةِ في تذوقِ السّعادةِ، في سياقِ فِكرةٍ أُخرى، وَهيَ اعتِبارُهُ أنّ زيادة المعرِفةِ تزيدُ الإنسان ألما مِثلُها مِثلُ قوّةِ ذاكِرتِهِ وَبعد نظرِهِ، لِأنّ الشّطر الأكبر مِن ألمِنا كامِنٌ في تأمُّلِ الماضيَ، أوْ التّفكيرِ فيما سيَقعُ مُستقبلًا، وَلِذلِك يعد الجُنون وَسيلةً يَلجأُ إليْها الإنسانُ لِتجنُّبِ الألمِ والهُروبِ مِنهُ، فالوَسيلةُ الوَحيدةُ لِلتّغلُّبِ على المخاوِفِ هوَ نِسيانُها. (ديورانت، 1998، ص ص 417-422) وَعليْهِ لابُدّ مِن الرّبطِ بيْن فِكرةِ القُدُراتِ العقليّةِ، وَفِكرتيْنِ أُخريَيْنِ لا تقِلّانِ أهمّيّة، وَهُما الاِستِقلاليّةُ والعُزلةُ.

فشوْبنُهاوِرُ يَرى أنّ ملذّاتِنا وَسعادتنا مُرتبِطةٌ بِدرجةِ معرِفتِنا وَوَعيِنا، وَأنّ سعادة الفردِ هيَ رهنٌ بِما يَعرِفُهُ وَما يَدورُ في عالِمِهِ الدّاخِليّ، أمّا الظُّروفُ المحيطةُ فتأثيرُها عرضيّ. (شوبنهاور، 2018، ص 16) فالعالمُ الدّاخِليُّ وَمعرِفتُهُ، هيَ المعرِفةُ المقصودةُ، لِكوْنِ معرِفةِ العالمِ الخارِجيّ وَمُحاوَلةِ التّأثيرِ فيهِ والتّأثُّرِ بِهِ، هيَ ما تقودُ إلى الجُنونِ، وَيَسعى الفردُّ إلى تجاوُزِها مِن خِلالِ النّسيانِ.

وَمِن هُنا يُقِرُّ شوْبنهاوِر مبدّأً أساسيًّا لِلسّعادةِ، يَتمثّلُ في اعتِبارِ أنّ الخسارة الكُبرى هيَ أنْ تخسر داخِلك مِن أجلِ الخارِجِ، لِأنّ السّعادة مِن نصيبِ المكتفين بِذواتِهِم، فالمصادِرُ الخارِجيّةُ والمتّعُ العابِرةُ لا يُعوّلُ عليْها في تحقيقِ السّعادةِ، لِأنّها حينها تكونُ سعادةً مُصطنعةً ، مُعرّضةً لِلنُّضوبِ السّريع. (شوبنهاور، 2018، ص ص 43-45) فالعُزلةُ هيَ يَنبوعُ السّعادةِ. (شوبنهاور، 2018، ص 186) وَتتناسبُ العُزلةُ عكسيًّا مع قُدُراتِ المرءِ العقليّةِ، لِأنّه من يُعاني مِن نقصٍ في أفكارِهِ، فيُحاوِلُ التّعويض بِالبحثِ عنها عِند الآخرين.

والشّخصُ السّعيدُ هوَ المكتفي بِذاتِهِ وَعالمُهُ الدّاخِليُّ، حيْثُ لا يَنتظِرُ شيْئًا مِن أحدٍ، تجنُّبًا لِما يَلحقُ بِذلِك الاِحتياجِ مِن أضرارٍ، حيْثُ سيَجعلُهُ عُرضةً لِلعُبوديّةِ مِن طرفِ من يَحتاجُ لهُم، كما أنّهُ عُرضةٌ لِلخيْبةِ والخِذلانُ مِنهُم، عِندما لا يوَفون بِما يَطلُبُهُ مِنهُم، ولذلك لابُدّ أن يَترفّع حتّى عن ثنائِهِم وَمدحِهِم لهُ. (شوبنهاور، 2018، ص 75) لِأنّ مالهُ لهُ قيمةٌ لا يُقدِرُهُ النّاسُ حقّ قدرِهِ، وَما يَنالُ مِنهُم التّعظيم والتّقديرُ، غالِبًا لا قيمة لهُ. (شوبنهاور، 2018، ص 186)

وَراحةُ البالِ هيَ أوّلُ ثِمارِ العُزلةِ اليانِعةِ، حيْثُ تحرّرُنا مِن مُخالطةِ الآخرين والاِنشِغالُ بِآرائِهِم عنّا، فالجماعةُ قد تُعطيك شُعورًا مُزيَفًا بِالأهمّيّةِ واكتِسابِ الشّرفِ والمكانةِ والمجدِ، مِن خِلالِ التّماهي مع مُكتسباتِها وَقد يَدفعُك أيْضًا لِلتّعصُّبِ خاصّةً التّعصُّبُ القوْميُّ المقيتُ. (شوبنهاور، 2018، ص ص 84-87)

وَلا يُحرِمُ الفذُّ مِن الجماعةِ فقط، بل يُحرِمُ حتّى مِن الأصدِقاءِ؛ لِأنّ الحياة العقليّة لا تُجنّبُ صاحِبها الألمُ والضّجرُ فحسبُ، بل تجنُّبُهُ أيْضًا رِفاقُ السّوْءِ. (شوبنهاور، 2018، ص 51) والسّعادةُ الّتي تأتي عن طريقِ الصّداقةِ يُحرِمُ منها العبقريُّ، وَيُنعمُ بِها الآخرون. (غريزي، 2008، ص 161) في المحصّلةِ يَعيشُ صاحِبُ القُدُراتِ العقليّةِ الرّفيعةِ غريبًا بيْن النّاسِ، بعيدًا عن ضوْضائِهِم؛ لِأنّهُ مُكتفٍ بِعالمِهِ الدّاخِليّ. (شوبنهاور،

2018، ص 56) وَهوَ ما عاشهُ شخصيًّا، حيْثُ كان شوْبُنهارٍ بُرجوازيًّا مُستقِلًّا عنِ الجامِعاتِ والمؤسّساتِ الإقطاعيّةِ، وَهوَ ما مكّنهُ مِن أنْ يُسجِّل موَقّفًا أصيلًا حرًّا. (لوكاش، د.ت، ص 10).

بِشكلٍ عامٍّ يَرى شوْبنُهاوِر أنّ السّعادة تتحقّقُ في الحياةِ البعيدةِ عن مصادِرِ الإزعاجِ، حيْثُ يَجِدُ المرءُ في العُزلةِ عزاءهُ الأخير، بعد مُعاشرتِهِ الطّويلةِ لِلنّاسِ، فبِقدرِ ما يَمتلِكُ الإنسانُ أشياء في داخِلِهِ، بِقدرِ ما يَشتدُّ استِغناؤُهُ عن النّاسِ وَعن العالمِ الخارجيّ، وَهوَ ما يَجعلُ المتفوّق عقليًّا، شخصًا انطوائيًّا وَغيْر اجتِماعيٍّ؛ لِأنّ ذلِك هوَ الخيارُ الأفضلُ، لِكوْنِ الخيارِ الآخرِ هوَ الذّوْبانُ في الجماعةِ. (شوبنهاور، 2018، ص 39)

خامساً: مِنْ اَلتَّشَاؤُمِ إِلَى اَلصُّوفِيَّةِ

1– هَزِيمَةُ اَلْإِرَادَةِ اَلْعَمْيَاءِ

الإرادة الشِّرّيرةُ العمياءُ هيَ المسؤولةُ عن الشّرِّ والحُزنِ وَمأساةُ العالمِ، لِذلِك يَقترحُ شوْبنهاور ثلاثَ طُرُقٍ، لِلخُروجِ مِن نفقِ الإرادةِ العمياءِ وَعبثيّةً وَلا معنى العالمِ، أوّلها هوَ الفنُّ بما هوَ سلوَى، وَثانيهما الأخلاقُ بما هيَ مُمارسةُ القوى، وَثالثُهُما الرّوحانيّةُ بما هيَ سبيلٌ لِلسّكينةِ. (فيري، 2015، ص 270) وَهيَ في حقيقةِ الأمرِ تبدو طريقًا واحِدًا، يَختزِلُ في التّعويضِ الرّوحانيّ أوْ الغيْبوبةِ الصّوفيّةِ، فهوَ ليْس تغييرًا لِعبثِ العالمِ أوْ مِنحِهِ معنًى، بل مُحاوَلةً لِصُنعِ معنًى وَهميٍّ، لا يُمكِنُ أن يوجد إلّا في المخيلةِ، أوْ تُجاهِلِ إشكاليّةَ المعنى أصلًا.

وَتأسيسًا على ذلِك فهوَ يَعتبِرُ الفنّ مركزيًّا في حياةِ البشرِ. (ماجي، 1998، ص 486) بل وَيَضعُهُ في مكانةٍ عاليَةٍ تجعلُهُ يَفوقُ العِلم والفلسفة. (توفيق، 1983، ص 115) فمُهِمّةُ الفنِّ مُهِمّةٌ عظمِيَةٌ، تتمثّلُ في التّحرُّرِ مِن قُيودِ الإرادةِ العمياءِ، وَذلِك حين يَصيرُ الإنسانُ عقلًا خالِصًا خاليًا مِن كُلِّ غرضٍ أوْ نزوَةٍ. (بدوي، 1942، ص 123)

فالفنُّ يَستهدِفُ الأفكار الّتي تُعدُّ صيغًا قابِلةً لِلفهمِ، حتّى يُمكِنهُ تبليغُها وَتحقُّقُها جُزئيًّا في الطّبيعةِ، كما يُحاوَلُ خيالُ الفنّانِ أن يُظهِرها لِلعيانِ، وَهوَ يَميطُ اللِّثام عنِ الذّاتيّةِ، وَبِذلِك يُقدّمُ شوْبنُهاوِرُ رُؤيَةٍ وَقورةٍ لِلفنّ، تُجعلُ مِنهُ كفاحًا ذِهنيًّا وَأخلاقيًّا، بل تجعلُهُ مِثل الفلسفةِ، لِكوْنِهِ يُحاوِلُ تفسير العالمِ. (ماجي، 1998، ص 469)

وَتُعدّ الموسيقى فناً كامِلًا، والفنُّ المضِلُّ أيْضًا بِالنّسبةِ لِشوْبِنهاوَر، لأنّها تُصوِّرُ الجوانِب المتعدّدة لِلإرادةِ، وَلُبُّ الرّغبةِ الصّانِعةِ لِلعالمِ، لأنّ الموسيقى لا تُهدأُ أبدًا وَلا تتوَقّفُ، حيْثُ تُعيدُ حركاتُها وَنغماتُها الواحِدةُ تلوَ الأُخرى، في عاطِفةٍ مُتدفِّقةٍ والحركةُ الدّائِمةِ، وَما الإنسانُ سِوَى هذِهِ الطّاقةِ المتجدّدةِ والعاطِفةِ الفيّاضةِ. (رويس، 2003، ص 307)

وَلا يُميّزُ شوْبنهاوِر بيْن الفنّ والجمالِ، لِذلِك يَرى أنّ الجمال يُسهِمُ في السّعادةِ، مِن خِلالِ الأثرِ الّذي يَترُكُهُ في الآخرِيْن. (شوبنهاور، 2018، ص 36) فالفنُّ هوَ الّذي يُحاوِلُ أنْ يُزيل الغِشاوَة عن أبصارِنا، لِكيْ نستطيع أنْ نرى جمال هذا العالمِ، بِغض النّظرِ عمّا إذا كان هذا الجمالُ حقيقيًّا أوْ مُزيّفًا، إنّنا بِالفنّ نفكُكُ العالم وَنُعيدُ تركيبهُ مرّةً أُخرى، وَبِالتّالي يَتكفّلُ الفنُّ بِتحسينِ علاقتِنا مع الواقِعِ أوْ العالِمِ، مِن خِلالِ رسمِ صورةٍ مُستساغةٍ لهُ.

وَعلى الرّغمِ مِن أنّ شوْبنُهاوِر وَقع في تناقُضٍ حين اعتبر أنّ الفنّ بِمثابةِ سلبٍ وَفِرارٍ مِن العالمِ، وَقضاءً على الإرادةِ وَإنكارٌ محضٌ، ثُمّ عاد لِيَقول أنّ الفنّ هوَ زهرةُ الحياةِ كما يُعبّرُ عن ماهيّةِ الوُجودِ، كما قد فاتهُ أنّ الفنّ إدراكًا محضًا، تُحقِّقُهُ الأدواتُ، وَيوَجِّهُهُ النّشاط الإراديُّ، وَتتحكّمُ فيهِ قواعِد الصّنعةِ، وَتتشارِكُ فيهِ مُقوّماتٌ نفسيّةٌ مِثلُ الذّكاءِ والذّاكِرةِ والخيالِ. (إبراهيم، 1997، ص 167) وَهوَ ما جعل بعضُهُم يَرى أنّ شوْبنهاوِر كان مُتعاطِفًا مع الفنّ أكثر مِمّا يَنبغي. (ماجي، 1998، ص 62)

والأهمُّ مِن ذلِك كُلِّهِ أنّ شوبنهاوِر يَرى أنّ الخلاص عن طريقِ الفنّ غيْرُ متاحٍ لِلجميعِ، بل هوَ متاحٌ لِلقِلّةِ الّذين يَتميّزون بِالنُّبوغِ والتّفرُّدِ، وَمِن هُنا تأتي الحاجةُ إلى الطّريقِ الآخرِ المتاحِ لِلغالِبيّةِ لِكيْ يَتحرّروا، وَهوَ سبيلُ الأخلاقِ، فهوَ يُحرِّرُ البشر مِن الأنانيّةِ، وَذلِك بِبيانِ أنّ الإرادة الكُلّيّة هيَ الّتي تتوقُ إلى تحقُّقِ حُبِّ البقاءِ، كما أنّها تُخلِّصُنا مِن زيْفٍ فرديّتِنا، الّتي وَإن تمثّلت في وُجودِنا المفرِدِ، إلّا أنّ الجوْهر الأساسيّ الّذي يُجمعُنا، هوَ جوْهرُ البشريّةِ، وَحين نُبلّغُ تِلك المرحلة، نكونُ قد بلغنا الفضيلة وَمحبّةُ الإنسانِ، والّتي تعني الِانصِراف عنِ الذّاتِ والتّوَجُّهِ إلى الغيْرِ، وَتِلك المحبّةُ هيَ الّتي تُساعِدُنا في التّخلُّصِ مِن الألمِ، وَمِن عُبوديّةِ الإرادةِ. (شوبنهاور، 2018، ص ص 39،38)

وَلِذلِك كان لِفلسفتِهِ الأخلاقيّةِ صدًى في كُلّ كُتُبِهِ الفلسفيّةِ، حيْثُ جُعِل مِن الأخلاقِ تهتمُّ بِقضايا الإنسانِ اليَوْميّةِ، مُبتعِدًا عنِ التّنظيرِ الفلسفيّ، لِكيْ يُقحِم رِجل الشّارِعِ في التّأمُّلِ والتّبصُّرِ، وَيَرجِع ذلِك لِكوْنِ فلسفتِهِ الأخلاقيّةِ فلسفةً عمليّةً تطبيقيّةٍ، الهدفُ مِنها مواجهةُ إرادةُ العالمِ العمياءِ (الإرادة الشّرّيرة) الّتي تتسبّبُ في تُعاسةِ الإنسانِ. (شوبنهاور، 2014، ص 36)

وترتّب على فلسفتِهِ الأخلاقيّةِ نتائجُ سلبيّةٍ جِدًّا، حيْثُ حُرِّرت الأخلاقُ الّتي يُقدّمُها شوْبنهاوِرُ، كُلّ مُيولِ الإنسانِ الشّرّيرةِ، المناهِضةِ لِلمُجتمعِ والإنسانِ، كما أعطاها كفالةً أخلاقيّةً، بعد تقديمِها بِوَصفِها مُلازمةً –إن لم تكُن واجِبةً– لِلمصيرِ الإنسانيّ. (لوكاش، د.ت، ص 18) وَيَرى (اشفيتسر) أنّ مِن سوءِ طالِعِ القرنِ 19 أنّ أحد أكبرِ المفكّرين الأخلاقيّين (شوْبنهاور)، لا يُساعِدُ العصر في سعيِهِ لِما يَحتاجُهُ مِن مذهبٍ أخلاقي اجتِماعيّ، لِكوْنِهِ كان معنيًّا بِالأخلاقِ الفرديّةِ، الّتي ليْس بِمقدورِها الوُقوفُ في وَجهِ الإنحِلالِ الأخلاقيّ السّائِدِ حينها. (اشفيتسر، 1963، ص 289)

2– اَلزُّهْد وَإِدَارَةِ اَلظُّهْرِ لِلْعَالَمِ

كانت الأخلاقُ والفنُّ مراحِلُ تمهيديّةٍ لِلمرحلةِ الأهمُّ وَهيَ الزُّهدُ، إذ تُعدُّ فِلسفتُهُ الأخلاقيّةِ مُجرّدُ مرحلةٍ مِن مراحِلِ إنكارِ العالِمِ والحياةِ. (اشفيتسر، 1963، ص 296) كما يُعدُّ الفنُّ مسكنًا مُؤقّتًا وَمرحلةً انتِقاليّةً يَتبادلُ فيها كُلٌّ مِن الإرادةِ والعقلِ السّيْطرةِ، حتّى يَصِل الإنسانُ إلى المرحلةِ الأخيرةِ وَهيَ مرحلةُ الزُّهدِ (المرحلةِ الرّوحانيّة)، حيْثُ يُحقّقُ العقلُ انتِصارًا كامِلًا على الإرادةِ، حين يَثِبُ إلى إلى عالِمٍ آخر لا سُلطان لِلإرادةِ فيهِ. (غريزي، 2008، ص 171)

وَعوّل شوْبنُهاوِر على عِدّةِ مصادِر لِتطويرِ الرّوحانيّةِ والتّصوُّفِ والزُّهدِ في فلسفتِهِ، وَيَأتي على رأسِها الفلسفةُ الهِنديّةُ، لِدرجةٍ كان يُلقّبُ بِ(بوذا الفُرانكفورتيُّ) ، وَيُعتبرُ كِتابهُ (العالِمُ إرادةً وَتصوُّر)، هوَ أوّلُ نِتاجٍ يُقدّمُهُ فيْلُسوف أوروبيٌّ، يَدخُلُ مِن خِلالِهِ الفلسفةُ الهِنديّةُ في التّفكيرِ الغربيّ. (تسيمر، 2011، 150) فلقد ارتبط فِكرُ شوْبنهاوِر بِوَصفِهِ رائِدًا لِلاّعقِلانيّةِ بِالفِكرِ الشّرقيّ؛ لِأنّهُ فِكرُ زاخِرٍ بِخفايا وَخوارِقِ الطّبيعةِ، والنّزعاتِ السّريّةِ والصّوفيّةِ. (كلارك، 2007، ص 40)

وَحتّى زمن شوْبنهاوِر لم يَكُن الفِكرُ الهِنديُّ يُنالُ قدرًا وافيًا مِن الاهتِمام، بل على العكسِ كان يَنظُرُ إليْهِ على أنّهُ فِكرٌ وَثنيٌّ بدائيٌّ، إلّا أنّ شوبنُهاوِر والمتشائِمون الغربيّون، غيّروا هذِهِ النّظرة ، حيْثُ وَجدوا فيهِ فلسفةً عميقةً، تُقدّمُ الكثير مِن العزاءِ والتّطوُّرِ الرّوحيّ. (Brahmavadin, 1898, p 14) بل عَدّ شوْبنُهاوِر أنّ الفلسفة الهِنديّة تُمثّلُ لحظةً حاسِمةً في الحياةِ الفلسفيّةِ لِأوروبّا المعاصِرة، وَلِذلِك كان مُعجبًا بِها بِشكلٍ كبيرٍ دون أيْ تحفُّظٍ. (كلارك، 2007، ص 113)

كما استعان بِالمسيحيّةِ إذ يَعُدّ الزُّهدُ الكامِلُ المثلُ الأعلى لِلقداسةِ، كما هوَ عِند بعضِ أتباعِ المسيحيّةِ، وَهوَ الدّرجةُ الأسمى لِقتلِ الغرائِزِ، ففيهِ يُنجحُ الإنسانُ في إلغاءِ مبدأِ الفرديّةِ، وَيَتحرّرُ بِسُلوكِهِ مِن قُيودِ المكانِ والزّمانِ والسّببيّةِ، وَيُطفِئُ بِذلِك الطّاقة المتخبّطة لِلإرادةِ. (تسيمر، 2011، 147).

إضافةً إلى البُعدِ الفلسفيّ في الزُّهدِ فلقد نمّى الصّوفيّة واللّاعقِلانيّة وَهُما الفِكرتانِ المحوريّتانِ في المِثاليّةِ. (لوكاش، د.ت، ص 27) حتّى يَنتهيَ بِهِ الأمرُ إلى نزعةٍ صوفيّةٍ زاهِدةٍ، حيْثُ يُمارِسُ الرّجُل الصّالِح الفقر والعِفّة وَتعذيب الذّاتِ، وَسحق الإرادةِ الفرديّةِ وَكُلّ ما هوَ سلبيّ. (رسل، 2012، ص 337)

فعِندما يُدرِكُ الإنسانُ ماهيّة الوُجودِ، يُصبِحُ خاليًا مِن كُلّ إرادةٍ ، فلا يُلتفِتُ بعدهُ لِملذّاتِ الحياةِ ، فيُصبِحُ الإنسانُ حينها زاهِدًا بِشكلٍ إراديّ مُسلِمًا مُطمئِنًّا مُتخلّصًا مِن كُلّ إرادةٍ، وَيَبلُغُ حينُها مرتبة الزُّهدِ المقدّسِ.(غريزي، 2008، ص 145) فالزُّهدُ هوَ المرحلةُ الأخيرةُ، الّتي يَنتصرُ فيها العقلُ على الإرادةِ انتِصارًا كامِلًا. (كامل، 1991، ص 80)

وَوَقْفًا لِشوْبنهاوِر يَهرُبُ الإنسان مِن كدحِ الإرادةِ وَيَترُكُ وَراءهُ قُيود الذّاتِ، فيتجاوز الإنسانِ بذكاءٍ إبداعيٍّ العالِمِ التّاريخيّ البحت، عالِمِ الخطيئةِ الأصليّةِ، وَذلِك بِالتّخلّي عن رغباتِهِ حتّى يُصبِح الذّاتُ العارِفة، وَهيَ صورةٌ مِن صوَرِ الزُّهدِ والصّوفيّةِ الشّرقيّةِ، حين تتحقّقُ الصّفةُ الذّوْقيّةُ بِاتّصالِ الذّاتِ مع الذّاتِ الإلهيّةِ. (Heller, 1975, p 85)

وَلذَلِك يرى شُوبنْهاور أنَّ مِن يُنْكرون إرادة الحيَاة هُم مِن يُبلّغون الرَّاحة التَّامَّة، وأولَئك هُم الزُّهَّاد والْمتصوّفون، حَيْث يدْفعهم زُهْدُهم لِمَحو الميْل إلى بَقَاء النَّوْع والذَّات أيْضًا، وَذلِك انْطلاقًا مِن اعتِبار أنَّ الوُجود شر، وبالتَّالي فَإِن إرادة الحيَاة شر هِي الْأُخرى، فَمن تَذوَّق ألم وَبُؤس الحيَاة وَعرَف وَهُم الفرْديَّة، فقد كلّ رَغبَةٍ فِي القيَام بِأيّ عملٍ، وأصْبح يميل إلى الزُّهْد والتَّصوُّف. (عويضة، 1993، ص 127)

وَيَختلِفُ شوْبنهاوِرُ يَختلِفُ عن كُلّ فلاسِفة عصرِهِ، لِكوْنِهِ يَرى أنّ الإرادة هيَ مصدرُ الألمِ والشّرّ، وبِناءً عليْهِ كان الخيْرُ والسّعادةُ سلبيانِ. (توفيق، 1983، ص 31) فالسّعادةُ شُعورٌ سلبيٌّ؛ لِأنّ البشر يَحِسّون بِالألمِ لا بِالخُلوّ مِن الألمِ، بِمعنى أنّ الحِرمان والألم هُما ما يُمكِنُ الشُّعورُ بِهِما، أمّا ما عداهُما فهوَ شُعورٌ سلبيٌّ. (غريزي، 2008، ص 139) وَلِذلِك فإنّ السّعادة الّتي يَحصُلُ عليْها الإنسانُ مِن إشباعِ حاجاتِهِ وَرغباتِهِ ضئيلةً جِدًّا، قياسًا إلى السّعادةِ الّتي يَحصُلُ عليْها الزّاهِدُ. (غريزي، 2008، ص 184).

والشُّعورُ بِالرّفاهيَةِ والرِّضا هوَ أمرٌ سلبيٌّ بِطبيعتِهِ؛ بِمعنى أنّهُ يَتوَقّفُ على التّحرُّرِ مِن الألمِ الّذي يُشكّلُ الجانِب الإيجابيّ لِلوُجودِ، وَيَترتّبُ على ذلِك، أنّ السّعادة تُقاسُ، ليْس بِما في الحياةِ مِن أفراحٍ وَمُتعةٍ، بل بِمدى خُلوّها مِن المعاناةِ والشّرّ.(Schopenhauer, 2005, p 7) لِأنّ السّعادة والرِّضا يُعبّرانِ دوْمًا عن حاجاتٍ تمّ تحقيقُها، وَألم تمّ إنهاؤُهُ.(شوبنهاور، 2019، ص 12)

وَبناءً على ذلِك فإنّ العوْز والمعاناة لا يُنتِجانِ عن عدمِ الإمتِلاكِ، بل هُم يُنتِجانِ مِن الرّغبةِ في الإمتِلاكِ دون تحقُّقِ الإمتِلاكِ الفِعليّ، بِمعنى أنّ الرّغبة في الإمتِلاكِ تُعدُّ شرطًا أساسيًا حتّى يَتحوّل عدمُ الإمتِلاكِ والحِرمانُ سببًا في وِلادةِ الألمِ. (شوبنهاور، 2016، ص 162) وَبذلِك يَعتبِرُ (اللاّتعلّق) هوَ القاعِدةُ الأساسيّة في فلسفتِهِ، فكُلُّ مُحاوَلةٍ لِتلبيَةِ الرّغباتِ وَإشباعِها تزيدُ مِن فُرصِ العناءِ والشّقاءِ. (غريزي، 2008، ص 180)

في المحصّلةِ يَدعو شوْبنُهاوِر بِشكلٍ أوْ بِآخر إلى ألّا نأخُذ العالِم على محملِ الجدّ، بل يَجِبُ أنْ نتعامل معهُ بِشيْءٍ مِن التّسليَةِ؛ لِأنّ ميلنا العفويّ إلى الدُّعابةِ يُسهمُ بِشكلٍ مُباشِرٍ في تحقيقِ سعادتِنا. (شوبنهاور، 2018، ص 30) لِأنّ أصحاب الأمزِجةِ السّيّئةِ والطّبائِعِ الحزينةِ، دائِمًا يَئِنّون بِسببِ آلامِ عذاباتٍ وَهميّةٍ، فهُم يَعيشون السّيّئ وَيَتوَقّعون الأسوَأ. (شوبنهاور، 2018، ص 35)

وَلِأجلِ ذلِك يَرى شوْبنُهاوِر أنّ على الإنسانِ أنْ يُدير ظهرهُ إلى العالِم، فإنكارُ إرادةِ الحياةِ هوَ الطّريقُ نحوُ الخلاصِ. (شوبنهاور، 2019، ص 26) بل جعل جوْهر فلسفتِهِ، ضرورة الإيمانِ بِأنّ هذِهِ الحياة ما كان يَنبغي لها أنْ تكون وَلابُدّ مِن الزُّهدِ فيها. (شوبنهاور، 2018، ص 165) لِدرجةٍ رأى بعضُ المفكّرين أنّ فلسفتهُ أصبحت تمثّلُ هُروبًا مِن الحياةِ وَآلامِها وَأحزانِها، وانسِحابًا وَهزيمة نكراء أمام الحياةِ. (غريزي، 2008، ص 174).

خَاتِمَةٌ

لا يُمكِنُ لِأحدٍ أنْ يُنكِر أهمّيّة معرِفةِ السّياقِ الزّمنيّ والفِكريّ، لِأيّ مدرسةٍ فِلسفيّةٍ أوْ أفكارٍ فيلسوفٍ، لِكيْ يُمكِن فهم أفكارِ تِلك المدارِسِ أوْ الفيْلسوفِ، مِمّا يَعني ضرورة الدُّخولِ في تفاصيل لا ترتبِطُ بِالأفكارِ بِشكلٍ مُباشِرٍ، وَلكِن ذلِك لا يَعني ضرورة أن تنطبِق أفكارُ الفيْلسوفِ مع حياتِهِ انطِباقًا كُلّيًا، فضلًا على أنّ هُناك تأثيراتٍ خفيّةٍ وَباطِنيّةٍ، لا يَصِلُ إليْها المؤرّخون والمفكّرون.

وَلِذلِك يَكونُ مِن الأفضلِ الِاكتِفاءُ بِالتّعامُلِ مع أفكارِ الفيْلسوفِ في سياقِ عصرِهِ دون مُقارنتِها بِتفاصيلِ حياتِهِ. بِكلِماتٍ أُخرى، ليْس مُهما معرِفةِ ما إذا كانت فلسفةً شوْبنهاوِر تنطبِقُ مع حياتِهِ بِقدرِ ما يَهُمُّ معرِفةُ اتّساقِها مع بعضِها، وَمع أحداثِ وَأفكارِ عصرِها، وَمدى تأثيرِها فيما بعدها ، وَلا يَتأتّى ذلِك إلّا بِتتبُّعِ أفكارِها وَنسقِها وَركائِزِها.

أسّس شوْبنُهاوِر فلسفتهُ التّشاؤُميّةِ على طريقةِ رُؤيَتِهِ لِلعالِمِ والّتي يَتبنّى فيها الفلسفةُ المِثاليّةُ–الكانطيّةُ بِشكلٍ خاصٍّ– بِحيْثُ يَجعلُ العالِمُ الخارِجيّ يَتكوّنُ نتيجةً لِانعِكاسِ الأفكارِ أوِ العقلِ، وَلكِنّ هذا العالِم يَنقسِمُ إلى دائِرتيْنِ: الدّائِرةِ الصُّغرى وَهيَ العالِمُ المادّيُّ، الّذي تتحكّمُ فيهِ السّببيّةُ، والدّائِرةُ الكُبرى هيَ العالِمُ اللّامادّيُّ سواءٌ كان روحيًّا أوْ ميتافيزيقيًّا، والّذي لا يَخضعُ لِلسّببيّةِ، بل تتحكّمُ فيهِ إرادةٌ عُليا مُبهمةً، لا يَعرِفُ البشرُ مقاصِدها وَلا قوانينها، وَلكِنّها تتحكّمُ في حياتِهِم.

والحياةُ في نظرِهِ هيَ بِمثابةِ الجحيمِ، نظرًا لِما فيها مِن عذابٍ وَألمٍ وَشرّ، وَلِأنّها تنتهي بِالموْتِ أيْضًا، وَهذا الكُمُّ الهائِلُ مِن الألمِ والشّرُّ تطلُبُ جُهدًا كبيرًا مِن شوْبنهاوِر لِكيْ يُبرّرهُ، حيْثُ لجأ إلى أنّ ما يُلاقيهِ البشرُ في حياتِهِم، لا يُمكِنُ تبريرُهُ إلّا مِن خِلالِ الإرادةِ الشّرّيرةِ الّتي تتحكّمُ في مصيرِ العالِمِ، وَهذا يَتضمّنُ أيْضًا موْقِفهُ مِن الأديانِ عُمومًا وَتفسيرِها لِخلقِ العالِمِ بِشكلٍ خاصٍّ.

فالحياةُ مليئةٌ بِالآلامِ والشُّرورِ، وَلابُدّ لِلإنسانِ أنْ يَهرُب مِنها فحتّى لذّتها وَبهجتُها عابِرةٌ وَتترُك خلفها آلِمًا وَحِرمانًا كبيرَيْنِ، وَليْس أدلُّ على قسوَةِ الحياةِ مِن أنّها قصيرةٌ، والحياةُ وَفقًا لِلتّصوُّراتِ الدّينيّةِ هيَ مكانٌ وُجِد فيهِ البشرُ بِسببِ الخطيئةِ، وَيَتنازعُهُم في طريقةِ عيْشِهِم وَتفكيرِهِم وَسوَسةٍ شيْطانيّةٍ، وَلا يَنتهي كُلُّ ذلِك إلّا بِالموْتِ، فالحياةُ هيَ مكانُ الخطيئةِ وَأرضُ الشّيْطانِ وَرهينةُ الموْتِ.

واستخدم طُرقًا عُدّةً لِبناءِ وَإثباتُ تصوُّرِهِ عن العالِمِ يَأتي في مُقدّمتِها التّصوُّراتِ الدّينيّةُ، والّتي تقولُ أنّ وُجود العالِمِ الأرضيّ وَهُبوط الإنسانِ هوَ نتيجةٌ مُباشِرةٌ لِلخطيئةِ الأوْلى، المرّكبةِ مِن وَسوَسةٍ شيْطانيّةٍ مُؤسّسةٍ على حِقدٍ وَحسدٍ شيْطانيّ لِلمكانةِ الّتي تبوّأها الإنسانُ، وَعلى خطأٍ إنسانيّ فادِحٍ، مبنيٌّ على الجشعِ والرّغبةِ في الخُلودِ، وَيُؤكّدُ شوْبنهاوِر في ثنايا حديثُهُ على أنّ هذا التّصوُّر ليْس مُرتبِطًا بِديانةٍ بِعيْنِها، بل هوَ موْجودٌ في دياناتِ الشّرقِ القديمِ والبوذيّةِ كما هوَ موْجودٌ في اليَهوديّةِ والمسيحيّةِ، وَإن كان استِدلالُهُ بِالنُّصوصِ البوذيَةِ قاصِرًا وانتُزِع الكثيرُ مِن أفكارِهِ مِن سياقِها لِكيْ يَستخدِمها كحججٍ تُؤيّدُ مقولاتِهِ الفلسفيّةُ المركزيّة.

والسُّؤالُ الّذي يَتبادرُ لِلذّهنِ هوَ لِماذا استعان شوْبنهاوِر بِالتّصوُّراتِ الدّينيّةِ لِإثباتِ صِحّةِ نظريّتِهِ التّشاؤُميّةِ، رغم مُيولِ شوْبنهاوِر المعاديَةِ لِلدّينِ، بل تصِلُ إلى اتّهامِهِ بِالإلحادِ، وَغالِبًا يرجع ذلِك لِكوْنِهِ استخدم في فلسفتِهِ عُمومًا لُغةُ رِجلُ الشّارِعِ، والأفكارُ الشّائِعةُ، وَحاوَل أن يَدعّم بِها نظريّتهُ وَنسقهُ الفلسفيّ، لِكيْ تصِل أفكارهُ إلى كُلّ الفِئاتِ وَتفهِمها وَتقتنِع بِها.

فعلى سبيلِ المِثالِ نجِدُ أنّهُ يُناقِشُ قضايا الحسدِ والغيْرةِ والحُبّ والصّداقةِ وَإصلاحِ ذاتِ البيْنِ والمجدِ والثّراءِ، بل وَيُناقِشُ أيْضًا مشاكِلُ الأعصابِ والمعِدةِ والتّمارينِ الرّياضيّةِ والطُّرُقُ المناسِبةُ لِلنّوْمِ، كُلُّ ذلِك في سياقِ السّعادةِ واللّذّةِ والألمِ، أيْ أنّهُ يُناقِشُ القضايا الفلسفيّة الكُبرى مُستخدِمًا لُغةُ رِجلِ الشّارِعِ.

كما استعان شوْبنهاوِر بِالفنّ والأخلاقِ لِتخفيفِ ألمِ الحياةِ مُعتبِرًا أنّ الفنّ يُمكِنُهُ تخليصُ الإنسانِ مِن قُيودِ الإرادةِ الشّرّيرةِ، عِندما يَتحرّرُ مِن الرّغباتِ والشّهوات، وَهوَ الدّوْرُ الّذي تلعبُهُ الأخلاقُ أيْضًا حين تُخلّصُنا مِن فرديّتِنا وَأنانيتِنا وَتجعلُ الإنسان يَنتمي إلى الإنسانيّةِ.

وَتُعدّ القُدُراتُ العقليّةُ هيَ الرّابِطُ وَحلقةُ الوَصلِ بيْن كُلّ السُّبُلِ الّتي اقترحها شوْبنهاوِر لِبُلوغِ السّعادةِ، وَقهرِ قوّةِ الإرادةِ العمياءِ الشّرّيرةِ، حيْثُ إنّ أصحاب القُدُراتِ العقليّةِ الرّفيعةِ، يُمكِنُهُم التّحكُّمُ في أفكارِهِم وَتنظيمِها، وَهوَ بِطبيعةِ الحالُ ما يَنعكِسُ على واقِعِهِم، وَلكِنّ ارتِفاع القُدُراتِ العقليّةِ، لهُ ثمنُهُ، حيْثُ يُجعلُ العبقريُّ في عُزلةٍ عن المجتمعِ.

وَنتيجةً لِذلِك وَصلُ شوْبنهاوِر إلى فِكرةِ الزُّهدِ والعُزلةِ، بِاعتِبارِ أنّ الحياة السّعيدة هيَ الّتي تقومُ على عددٍ قليلٍ مِن الطُّموحاتِ، وَلا نطمعُ فيها إلّا بِالقليلِ، وَلا يُساوِرُ المرءُ فيها رغبةً في الشُّهرةِ والثّراءِ والمجدِ، وَحتّى إن وَصل إليْها لابُدّ أنْ يُؤمِن بِأنّها أشياءُ زائِفةٌ قد تزولُ في أيّ وَقتٍ، وَغالِبًا ما يَتغيّرُ موْقِفُنا مِنها مع الزّمنِ، إنّ الحياة السّعيدة هيَ الّتي تُركزُ على الحاضِرِ فقط، فتنسى الماضيَ وَلا تُفكّرُ في المستقبلِ.

وفي المحصّلةِ يمكن القول إنّ شوبنُهاوَر انتقل مِن اليَأسِ إلى الصّوفيّةِ، وَهوَ بِذلِك يُعبّرُ بِكُلّ صِدقٍ عن أحوالِ عصرِهِ، الّتي لا تختلِفُ عن ما مرّت بِها أثينًا وَرومًا سابِقًا، حيْثُ تنتشِرُ أفكارُ التّشاؤُمِ وَمِن ثمّ أفكارُ الجبريّةِ والصّوفيّةُ، لِأنّ الرّوحانيّة هيَ الطّريقةُ المثلى لِتخطّي أسئِلةِ الوُجودِ الكُبرى عن المصيرِ الإنسانيّ، وَمُحاوَلةِ الِاندِماجِ في الكُلّيّةِ الإنسانيّةِ، وَتجاوَزِ أزماتِ الذّاتيّةِ والفرديّةِ.

كما أنّ تأثير فلسفةِ شوْبنهاوِر ليْس فقط لأنّها فلسفةٌ تشاؤُميّةٌ، بل هيَ فلسفةٌ تُحرِرُ الفرد مِن كُلّ مسؤوليّةٍ تِجاهِ حاضِرِهِ وَمُستقبلِهِ، فهوَ محكومٌ بِقوّةٍ عمياء قدريّةٍ، لا يَملِكُ حيالها أيُّ شيْءٍ، وَلا يُمكِنُهُ تغييرُ أيّ شيْءٍ، إنّها تُؤدّي الوَظيفيّة الّتي يُؤدّيها الخِطابُ الدّينيُّ الموالي لِلسُّلطةِ، وَهيَ أن يَتخلّى الفردُ عن فِكرةِ صبّ جام غضبهُ على النُّظمِ القائِمةِ أوْ مُحاوَلةِ تغييرِها.

ويمكن إيجاز أهم النتائج في النقاط الآتية:

1- لَا يُمْكِن الرَّبْط بَيْن التَّفاؤل والسَّعادة وبيْن الرَّفاهية المادِّيَّة، فقد يَشعُر الإنْسان عُمومًا والْفيْلسوف بِشَكلٍ خاصٍّ بِالْحُزْن والْبُؤْس نَتِيجَة لِخَيْبَاتٍ رُوحيَّةٍ تَتَعلَّق بِحياته الاجْتماعيَّة أو إشْكاليَّاتٍ تَتَعلَّق بِعصْره عُمومًا.

2- إنَّ التَّرْكيز على حَيَاة الفيْلسوف يُمْكِن اِعْتباره عاملا مُساعِدًا لِفَهم أفْكاره، وَلكِن لَا يُمْكِن أنْ يَتخِذ مِعْيارًا وحيدًا لِتقْييمهَا وَتحدِيد جدَّتهَا وجدْواهَا.

3- لَقد أَسَّس شُوبنْهاور فلْسفَته اِنْطلاقًا مِن الفلْسفات والْأدْيان السَّابقة عليْه، كمَا كان لِفلْسفته الأكْثر اَلكبِير في الفلْسفات اللَّاحقة، مِمَّا يَعنِي أَنَّه اِسْتطَاع تَأْسِيس نسقٍ فَلسَفِيٍّ قَوِيٍّ ومتماسكٍ.

4- لَم يَتوقَّف شُوبنْهاور عِنْد تَشخِيص إشْكاليَّات عَصرِه كمَا يَفعَل الفلاسفة عَادَة، بل كان لِفلْسفته قُدرَة تَنبؤية إضافة إلى قُدْرته على اِقتِراح اَلعدِيد مِن اَلحُلول.

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

1-المصادر والمراجع العربية

- إبراهيم، زكريا، (1997) مشكلة الفن، مكتبة مصر، الفجالة، مصر.
- اشبنغلر، اسوالد، (1964) تدهور الحضارة الغربية، ج1، (ت) أحمد الشيباني، مكتبة الحياة، بيروت.
- اشفيتسر، ألبرت، (1963) فلسفة الحضارة، (ت) عبد الرحمن بدوي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
- بدوي، عبد الرحمن، (1942) شوبنهاور، وكالة المطبوعات، الكويت.
- برهييه ، إميل (1985)، تاريخ الفلسفة القرن التاسع عشر، ج6، (ت) جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت.
- بوتون، آلان، (2016)، عزاءات الفلسفة، (ت) يزن الحاج، التنوير، بيروت.
- تايلور، تشارلز، (2019) عصر علماني، (ت) نوفل الحاج، جداول، بيروت.
- تسيمر، روبرت، (2011) في صحبة الفلاسفة ج 1،(ت) عبد الله أبو هشة، دار الحكمة، لندن.
- توفيق، سعيد، (1983) ميتافيزيقا الفن عند شوبنهاور، دار التنوير، بيروت.

- حسين، علي (2007)، الفلسفة الغربية من التنوير إلى العدمية، دار مجدلاوي، عمان.
- دو توكفيل، ألكسي (2010)، النظام القديم والثورة الفرنسية، (ت) خليل كلفت، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- ديورانت، ويل، (1988) قصة الفلسفة، (ت) فتح الله المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت.
- رسل، برتراند، (2012)، تاريخ الفلسفة الغربية، ج3، (ت) محمد الشنيطي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.
- رويس، جوزايا، (2003) روح الفلسفة الحديثة، (ت) أحمد الأنصاري، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.
- سيوران، إميل، (2015) مثالب الولادة، (ت) آدم فتحي، منشورات الجمل، بيروت.
- شتاينر، ردولف، (1998)، نيتشة مكافحا ضد عصره، (ت) حسن صقر، دار الحصاد، دمشق.
- شوبنهاور، آرثور، (2006) العالم إرادة وتمثلا، (ت) سعيد توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- شوبنهاور، آرثور، (2012) فن الأدب، (أعدها) بيلي سوندرز، (ت)، شفيق مقار، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- شوبنهاور، آرثور، (2014) نقد الفلسفة الكانطية، (ت) حميد لشهب، دار جداول، بيروت.
- شوبنهاور، آرثور، (2016) العالم كتصور ج 1، (ت) نصير فليح، المتوسط، ميلانو.
- شوبنهاور، آرثور، (2018) فن العيش الحكيم، (ت) عبد الله زارو، دار الآمان، الرباط.
- شوبنهاور، آرثور، (2019) تهمة اليأس، (ت) الطيب الحصني، دار الصفحة 7، الجبيل
- شوبنهاور، آرثور، (2021) ميتافيزيقا الحب، (ت) جلال العاطي ربي، الرافدين، بيروت.
- عويضة، كامل، (1993) شوبنهاور بين الفلسفة والأدب، دار الكتب العلمية، بيروت.
- غريزي، وفيق، (2008) شوبنهاور وفلسفة التشاؤم، دار الفارابي، بيروت.
- فيري، لوك، (2015) أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، (ت) محمود بن جماعة، دار التنوير، بيروت.
- كامل، فؤاد، (1991) الفرد في فلسفة شوبنهاور، دار المعارف، الإسكندرية.
- كلارك، جي (2007)، التنوير الآتي من الشرق،(ت) شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت.
- كلي، وليم، (2010) تاريخ الفلسفة الحديثة، (ت) محمود سيد، التنوير للطباعة، بيروت.
- كوبلستون، فريدريك (2016)، تاريخ الفلسفة ج7، (ت) إمام عبدالفتاح، محمود سيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- لوكاش، جورج (د.ت)، تحطيم العقل ج2، (ت) إلياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت.
- ماجي، براين، (1998) رجال الفكر، (ت) نجيب الحصادي، منشورات جامعة بنغازي، بنغازي.
- معوض، أحمد (2020)، أضواء على شوبنهاور، نيوبوك للنشر، القاهرة.
- مورانو، كيوم، (2013) شوبنهور، (ت) فاروق الحميد، التنوين، دمشق.
- نيتشة، فريدريك، (2003) ما وراء الخير والشر، (ت) جزيلا فالور حجار، دار الفارابي، بيروت.
- نيتشة، فريدريك، (2010) في جنيالوجيا الأخلاق، (ت) فتحي المسكيني، المركز الوطني للترجمة، تونس.
- نيتشة، فريدريك، (2016) شوبنهاور مربيا، (ت) قحطان جاسم، دار أوما، بغداد.
- نيتشة، فريدريك، (2001) إنسان مفرط في إنسانيته 2، (ت) محمد الناجي، إفريقيا الشرق، بيروت.
- هيوستن، نناسي، (2012) أساتذة اليأس،(ت) وليد السويركي، هيئة أبوظبي للثقافة، أبوظبي.
- ولسون، كولن، (1978) المعقول واللامعقول في الأدب الحديث، (ت) أنيس زكي، دار الآداب، بيروت.

2- المصادر والمراجع الأجنبية

- Brahmavadin Divya-Jyoti, (1898) Prabuddha Bharata, AUGUST, Almora
- Heller, Erich, (1975) he disinherited mind : essays in modern German literature and thought, New York : Harcourt Brace Jovanovich
- Guttmacher, Adolf,(1903) Optimism and Pessimism in the Old and New Testaments, BALTIMORE,MD
- Schopenhauer, Arthur,(2005) Studies in Pessimism, trans Thomas bailey, The Pennsylvania State University
- Zimmern ,Helene,(1973) ARTHUR SCHOPENHAUER HIS LIFE AND HIS PHILOSOPHY, London : Longmans, Green